مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الأعلام - الجمهورية العراقية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٧٨٢٤
التاريخ ١٩/١٢/٢٠١٢

المشرف العام
محمد جميل شلش

رئيس التحرير
عبد الحميد العلوچي

مدير التحرير
حارث طه الراوي

سكرتير التحرير
منذر الجبوري

المتنبّي في دراسات المستشرقين

١ ـ حياة ابي الطيب المتنبي وشعره

بقلم : ريجي بلاشير

٢ ـ المتنبي أمام العصر الاسماعيلي للاسلام

بقلم : لوي ماسينيون

٣ ـ المتنبي وأسباب مجده

بقلم : گودفروا دومبين

٤ ـ المتنبي والحرب البيزنطية العربية

بقلم : ماريوس كنار

٥ ـ المغزى التاريخي للعروبة في شعر المتنبي

بقلم : جان لسيرف

ترجمة الدكتور

أكرم فاضل

مديرية الفنون الشعبية ـ وزارة الاعلام ـ بغداد

[وهي المجموعة التي نشرها المعهد الفرنسي بدمشق ، في سنة ١٩٣٦ بمناسبة الذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي](١) .

●★●

ترجمة هذه الدراسات النفسية هاجس كان يساورني منذ فترة طويلة . وقد قيض الله مناسبة احتفال وزارة الاعلام العراقية بشاعرها الخالد لنشرها بالعربية .

استأذنت من المعهد الفرنسي في دمشق ، فاذن لي ، فله امتناني واعجابي بمطبوعاته الرائعة .

كنت أتمنى لو كان كتّاب هذه الموضوعات احياء ، وعلى رأسهم ماسينيون . وعزائي بطويلي العمر منهم : جان لسيرف وماريوس كنار ، فكلاهما موضع فخار ..

الدكتور اكرم فاضل

---

(١) وقد أبعدنا عن هذه المجموعة البحث المتعلق بقلعة حلب لقلة جدواه في اضاءة المتنبي ولعلاقته الوثقى بالخطط (المورد) .

حياة أبي الطيب المتنبي وشعره

مدينة تختلط فيها ضروب العناصر العرقية مجتمعة ولكن حيث يسود عرب البادية المجاورة ، مركز ثقافي في طور انهياره ولكن روحه مشبعة بالدور الذي لعبه في العصر السالف . مدينة مترعة بالذكريات الشيعية ، مدينة رابضة في منطقة تنخر القلاقل اعماقها جراء المذاهب القرمطية . هذه حالة الكوفة في مطلع القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، في لحظة مولد أبي الطيب أحمد بن الحسين ، الذي أصبح مشهوراً بلقب المتنبي .

ان اسرة الرجل الذي سيغدو أحد أعاظم شعراء اللغة العربية هي من أروقة واطئة (والد أبي الطيب المتنبي سقاء) ، ولكن هذه الارومة تدعي انها من جذر يماني . وقد تربى الطفل في احضان جدته . وشب وتابع دراساته في وسط يعج بالفرق الدينية ، ولكنه ما لبث ان اثار اعجاب محيطه بذاكرته وذكائه ومتانة خلقه ، وقد كشف في سن مبكرة عن استعداداته الشعرية .

ففي حوالي نهاية عام ٩٢٥/٣١٢ سيقع حادث طارىء يسمح له بتعميق معلوماته في اللغة العربية ذلك هو استيلاء داعي دعاة القرامطة على الكوفة التي نهبها في كل جمعة ، فهرب ابو الطيب واهله باتجاه بادية السماوة الشرقية ليقيم فيها سنتين ، متصلا بالبدو الذين تعتبر لغتهم غاية في النقاوة ، فراض نفسه على التمرس بهذه الاداة التي ستكون عنوان فخاره . وفي الوقت نفسه اهتزت اوتاره كل الاهتزاز لتعاليم القرامطة ، ولدى عودته من الكوفة دخل في علاقاته مع أحد اعيان هذه البلدة ، ولا نشك مطلقا بأنه هو الاخر كان منجذبا الى مذهب القرامطة .

ومن المحتمل ان أبا الطيب لم يكن ينتظر هذه اللحظة ليتابع هواه الشعري ومع ذلك فان فترة رجوعه الى مسقط رأسه تعتبر تاريخ انبجاس اشعاره الاولى ، رغم ان هذا التاريخ مايزال في حاجة الى الضبط .

من هذه الحقبة يظهر نزوعه الاصيل بوضوح ، فشأنه تقريبا شأن جميع من يشبهونه في تلك البرهة ، من الذين يأنسون في انفسهم اختمار القريحة الشعرية ، وسيضع ربة شعره في خدمة العظماء وبهذه الوسيلة سيحاول تحقيق مطامحه .

واذا لم تلح له الكوفة قطعا بقعة ملائمة لخططه ، فانه انطلق مع أبيه للحلول في بغداد (نهاية ٩٢٨/٣١٦) . وهذا وهم أزلي يساور كل ريفي تفتنه شهرة العاصمة ! والحقيقة أن بغداد كانت في حاجة شديدة الى هذا المقفّي البالغ ثلاث عشرة سنة . وأبو الطيب كان شاعرا بهذه الحقيقة فانطلق الى سوريا . وحينئذ ارتسم له وجود يشبه وجود شعرائنا الغربيين التروبادور . وإذا لم يكتب لنا أن نقرر نظام تنقلاته ، فإننا واجدوه في منبج ودمشق وحلب وطبرية وطرابلس ، طورا في حاشية الامراء البدو وتارة في حاشية الاعيان الحضر . والى هؤلاء الاشخاص (الذين كانوا سيظلون مجهولين حتى بالاسم لولا أبو الطيب) أهدى مدائحه أو مراثيه . ولم يرض التحفظ الذي قوبلت به القصائد ، هذا الشاعر الشاب لذلك نراه يثور شيئا فشيئا على طالعه وعلى الناس وعلى الحياة ، وفي معظم الاحيان تثور ثائرة اخفاقه فيبرق ويرعد عبر قصائد المديح:

أحقٌ عافٍ بدمعك الهمم
أحْدَثُ شَيْءٍ عهدا بها القدم

وإنما الناس بالملوك وما
تُفْلِحُ عربٌ ملوكها عجم

وفي أحايين عديدة كذلك ، يكشف عن خططه الجديدة ، وما دامت طموحاته لن يكتب لها التحقيق عن طريق استخدام القريحة وحدها فانه سيلجأ الى العنف :

أذاقني زمني بلوىً شرقت بها
لو ذاقها لبكى ماعاش وانتحبا
وان عمرت جعلت الحرب والدةً
والسمريَّ أخا والمشرفيَّ أبا
فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي
والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

وسرعان ما تتسلط عليه فكرة الثورة فيقع في اسرها :

أبدا أقطع البلاد ونجمي
في نحوس وهمتي في سعود
عش عزيزا أو مت وانت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود
لا كما قد حييت غير حميدٍ
وإذا متَّ متَّ غير فقيد

وفي الوقت الذي يغلي غضبه خلاله ، تتفاقم نقمة سخطه :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقي ولا أحدٌ مثلي
وذرني وإياه وطرفي وذابلي
تكن واحدا يلقى الورى وانظرَنْ فعلى

ويصل الى اللاذقية في حمّى هذه العقلية ، وذلك في ختام عام (٣٢١/٩٣٣) فيوطد علاقاته مع بعض الافراد ، الذين هم مثله منجرون الى الحركة القرمطية فيشرع بدعايته الثورية ، ثم يدخل في غمار بدو السماوة الغربية .

ظل الخطأ مدة طويلة يحوم فوق طبيعة الفتنة التي اشعل نارها أبو الطيب ونرى نحن استنادا الى القصص الواردة في التراجم الشرقية ، تصوير الشاعر وكأنه ادعى النبوة ، وتأسيسا على هذه النظرية تحدث الرواة عن قرآن قيل انه ألّفه لحواريه . على أن ثورة المتنبي في وضعها التاريخي إذ كانت قد فشلت في الحقل الروائي ، فانها قد نجحت كثيرا في عالم الافكار ويجب تشبيهها بالمحاولات الثورية العديدة التي سعّرها القرامطة منذ نصف قرن ، ولا نشك في عجزنا عن تقرير حقيقة الامر وتحديد تفاصيل مسيرة دعاية الشاعر ولا القول عما إذا كانت هذه المسيرة حدثت لحسابه الشخصي أم لحساب زعيم قرمطي كبير . ولكن الواقع الاكيد في كل الاحوال هو الطابع القرمطي لهذه الفتنة التي أوقد نارها فتى يافع اعتنق هذا المذهب في بيئة بدوية اشتركت عدة مرات في كافة حملات أئمة الحركات العسكرية .

أما أن المعاصرين وبعدهم كتاب التراجم يجهلون او يتجاهلون طبيعة المذهب الذي بشر به أبو الطيب ، فالواقع اعتيادي : كان هذا المذهب سريا ولسريته هذه فتح الابواب على مصاريعها للتخرصات المضحكة ، وعلى هذا حلّق الخيال بكل الاجنحة في سماوات الاوهام .

لقد كانت نتيجة فتنة المتنبي سلبية . إذ تدخلت السلطات السورية المصرية في الواقع وشتت شمل البدو المنضمين الى الشاب المشاغب والقت القبض عليه واعتقلته . وان سنتين مرتا على حبسه في حمص اقنعتا أبا الطيب إن فكرة قوله « والدنيا لمن غلبا » ليست صحيحة على الدوام ، ولم يحتفظ من مغامرته الا بمرارة قوية ، وباحقاد مقيمة معقدة، وبلقب المتنبي .

ولدى خروجه من السجن لم يعد الى الشعر، لأنه لم ينقطع عن معاناته أثناء انتفاضته ، وإنما عاد الى شنشنة الشاعر المتجول ، التروبادور . وطوال بضع سنوات . جاس من جديد خلال الديار السورية الشمالية والجنوبية ، مشيداً ببعض صغار الامراء المحليين وبعض البورجوازيين المعنيين بالادب وينبغي ان نسجل للشاعر بمداد من المديح ما اقتضته هذه الفترة القاحلة من حياته من شجاعة ادبية وثبات إذ كان في الوقت نفسه هدفا للازدراء والمضايقات والبؤس ، ولكنه لم ييأس بل حافظ على ثقته بنفسه .

في مطلع سنة ٣٢٨/٩٣٩ نستطيع الظن بأن هذه الجهود ستحصل على مكافأتها ففي هذا التاريخ – في الواقع – تعلق المتنبي بنائب والي سورية الجنوبية بدر الخرشني الذي جاء من بغداد لتسلم أعنة منصبه . وفي بحر سنة عرف الشاعر اللذات الاولى لعيش مترف مع حاشية أمير حفي بالاداب والمسرات ، ولكن الحساد أفلحوا بدسائسهم في الايقاع بين المحسن ومحميه ، فاضطر أبو الطيب للفرار الى شرق الاردن ، وبدأت فترة جديدة من المحن ، وفي برهة خيل كأن الشاعر يفكر مجددا بأن العنف وحده قادر على تحقيق أحلامه الطموحة:

لا افتخار إلاَّ لمن لا يضام
مدركٍ او محارب لا ينام
لله حالٌ ارجيها وتخلفني
واقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوما وإن عشنا نظمت لهم
قصائدا من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة
إذا تنوشدن لم يدخلن في اذن

فلا احارب مدفوعا الى جدر
ولا أصالح مغرورا على دخن

مُخَيِّمُ الجمع بالبيداء يصهره
حر الهواجر في صم من الفتن

ولكن سرعان ماانقشعت الصعوبات التي كان يتخبط فيها المتنبي ، إذ عاد (بدر) الى بغداد ، وترك الشاعر معتكفه واستأنف حياة الشاعر المداح، ويبدو أنه فقد الشجاعة التي كانت تحفزه قبل نزاعه مع بدر ، وزاد الطين بله علمه بوفاة جدته المرأة الوحيدة التي يحنو عليها ، فانفجر مقته للحياة مجددا وبصورة فجائية ، وقريب من الحقيقة اعتقادنا بانطوائه على نفسه وانقطاعه على النظم . ولكنا نجده حوالي نهاية عام ٣٢٩/٩٤٠ في انطاكية ، وقد اتصل حبله بحبال اعيان هذه البلدة فأستأنف حرفته كمداح ، تلك الحرفة التي لن يتوب عنها أبدا .

وبالنسبة للمتنبي ، كما بالنسبة لجميع الشعراء من العجينة نفسها من المناسب أن نخصص محلا للتقلبات السياسية إذا اردنا أن نفهم الاسباب التي حملته على التعلق بهذا المحسن لا بذاك ، فهو إذ وصل في الواقع الى الحقبة التي نحن بصددها ، لم يعد الشاعر المتضور جوعا ولا الفنان المجهول للسنين الخوالي أصبح بمقدوره اختيار حماته باناة وروية ، وهو منسجم مع المنطق حين يوجه نظراته صوب اولئك الذين يبتسم لهم الحظ ظاهرا، وعلى هذا ففي عام ٣٣٠/٩٤١ أصبح محمد الاخشيدي نائب حاكم مصر وفلسطين مستقلا عن بغداد وساد حكمه كذلك في سورية حتى الفرات، فتعلق المتنبي بوجهاء السلالة الوليدة ، وبالاخشيدي خاصة ، ثم بابنه ، واخيرا بأبن أخيه الحسن والي الرملة بفلسطين (من مستهل عام ٣٣٥ حتى النصف الثاني من عام ٣٤٦) في هذا التاريخ نهضت شهرة المتنبي على دعائم راسخة .

ولكن المداح الطموح لم يبد مع ذلك مغتبطا بالمركز الذي احتله في الرملة ، كان يحلم بالاكثر ، كان يحلم ضبطا بامارة جديدة نشأت حديثا تقع في سورية الشمالية على حساب السلالة الاخشيدية، وكان زعيمها اميرا عربيا هو سيف الدولة الذي طبقت شهرته الافاق بصفته قائدا عسكريا ومحسنا كبيرا ، فامتدت الى خارج حلب وأبعدت ، وتعرف المتنبي على سيف الدولة بواسطة أبي العشائر والي انطاكية وابن عم سيف الدولة ، الذي سرعان ما رحب به وضمه الى بلاط حلب (جمادى الاولى ٣٣٢/تشرين الثاني ٩٣٨) .

أما فترة التسع سنوات التالية فهي حاسمة في مجرى حياة أبي الطيب الادبية فانه وضع نفسه في وسط ثقافي وفني يعج بنشاط كثيف ، تحت حماية أمير قوي الشكيمة تجاه مداحيه ، أصبح مرغما على المشاركة في كافة غزوات سيف الدولة تقريبا التي كانت تشن سواء بسواء على قلقيلية او قباقب أو ضد البدو في بوادي سورية ، كما انغمر في الحياة المهينة التي يحياها البلاط ، مضنيا نفسه في المدافعات المستمرة ضد شانئيه والمفترين عليه ، وقد نجح المتنبي في الظهور بمظهر زعيم مدرسة شعرية وبالاحتفاظ الثابت بمساندة سيف الدولة رغم التحرشات التي لا يمكن اجتنابها ، وبصورة خاصة أفلح في التحرر من المراغم التي تفرضها على انتاجه الشعري حالة كونه من شعراء البلاط ، وذلك للسمو بفنه الى درجة الاعراب المناسب عن عظمة الوقائع الحربية التي هو شاهد عليها .

إن شعر أبي الطيب ـ طوال هذه الفترة ـ عبارة عن صدى جميع الحوادث الكبرى والصغرى، التي كانت شغل بلاط حلب الشاغل ، والشاعر بوصفه من اعوان البلاط وجد نفسه مدفوعا الى تقفية قصائد ارتجالية من العبث التحدث قيمتها الادبية . وباعتباره صناجة السلالة الرسمي كان محتما عليه أن يشيد بمزايا سيف الدولة او بفضائل افراد اسرته حين يدركهم الموت ، وبالاضافة الى ذلك ـ وتلك مهمة جوهرية ـ كان يجب عليه التغني بانتصارات حامية ومحو الاثر النفسي لطالع منحوس في مستهل كل حملة ، والتقليل من شأن النتائج السياسية حين ينكب سيف الدولة في مخارم طوروس .

وما ان وصل المتنبي الى بلاط حلب حتى أصبح هدفا لدسائس كان يلفقها عليه ابن عم سيف الدولة الامير الشاعر ابو فراس ، ففي عدة مناسبات حاول هؤلاء المشنعون تضليل أمير حلب . وغالبا ما نتنسم في إحدى قصائد الشاعر هواجسه المتخوفه:

ألا مالسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالي إذا ما اشتقت أبصرت دونه
تنائف لا أشتاقها وسباسبا

أهذا جزاء الصدق ان كنت صادقا
أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا ؟

رغم ذلك لم يفلح أبو فراس وعصبته في الوصول الى اغراضهم ومع هذا أخذ ينفذ صبر سيف الدولة قليلا قليلا ، فضاق بمزاج محميه

العصيّ وانقطاع وحيه وفي الاشهر الاولى من عام ٩٥٧/٣٤٦ تذرع المتنبي بمشاجرة تافهة وقعت بين البلاطيين ظل الامير حيالها محايدا ، مما أدى الى فتور حمل المتنبي على مغادرة حلب سرّا ، دون ان ينسى حمل الكنوز التي اغدقها عليه حاميه .

لقد شعر أبو الطيب شعورا حادا بأنواع المزعجات التي يتعرض لها شاعر نذر نفسه لمدح الامير ، فلم يستطع والحالة هذه البقاء طويلا متشبثا بشخصية قوية كائنة من كانت ، وبدا في لحظة وكأنه يفكر بالبقاء الى جوار سيده القديم الحسن الذي ألفاه في الرملة بفلسطين، ولكن المخصي أبا المسك كافور ، عرض عليه عروضا يمثل رفضها خطرا عليه ، لذلك توجه المتنبي غير متحمس الى الفسطاط التي كانت عهدئذٍ عاصمة الامارة الاخشيدية المصرية .

ورغم الاستقبال الرائع جدا الذي قوبل به تردد أبو الطيب بعض الوقت إذ شق عليه أن يكون مداح كافور خاصة . كان يترتب على الوصي التلويح لعينيه بمنظور ولاية عسكرية في صيدا . لكي يعزم المتنبي على توجيه قصائده اليه . هل كان كافور مخلصا حين بذر بذرة الامل هذه في قلب محميه ؟ هذا اكثر من مشكوك به . ومع هذا فقد انقضى عامان قبل ان يشعر المتنبي بانه كان العوبة بين يدي ممدوحه ، وعندما فتح عينيه حاول البحث عن حامٍ آخر وظن انه وجده في شخص قائد عسكري يافع ، هو أبو فاتك ، ولكن هذا مات ميتة فجائية، فلم يبق للشاعر إلاّ أن يصب جام غضبه على كافور في أهاج راجت بصورة سرية في الفسطاط بانتظار اللحظة السانحة للفرار وسنحت له هذه اللحظة في ذي الحجة ٣٥٠ هـ /كانون الثاني ٩٦٢ م فغادر مصر تصحبه اسرته وحقائبه مجتازا شبه جزيرة سيناء ، متوقفا لدى بعض البدو مخترقا شبه جزيرة العرب من الغرب الى الشرق عن طريق دومة الجندل (الجوف) للوصول الى الكوفة مسقط رأسه ـ وذلك في ربيع الاول ٣٥١ هـ /نيسان ٩٦٢ م. وبالرغم من ان مواطنيه استقبلوه استقبالهم لأعجوبة ، فان أبا الطيب لم يستقر إلاّ قليلا في الكوفة ، إذ انطلق الى بغداد وكانت خططه في تلك الفترة لا تقف على أرجلها وبدت تروم العودة الى سيف الدولة ، ومع ذلك سرعان ما تخلى عن هذا المشروع وكان ذلك ولا شك نتيجة النكسات العسكرية التي حاقت بأمير حلب في حربه ضد البيزنطيين الذين جعلوا موقفه حرجا للغاية ومن جهة اخرى ، لم يفكر بالبقاء في بغداد حيث الاوساط الحكومية والادبية تناصبه العداء الصريح، فعزم على الالتجاء الى « انزواء باذخ » وقطع الصلة مؤقتا بمهنة المداح .

وفضلا عن ذلك فان هذه الاقامة في بغداد كانت بالغة الأهمية لامتداد الدراسات « المتنبئية » في الشرق ، والواقع انه في هذا التاريخ بالذات تحلقت حول الشاعر نخبة معينة من العلماء واللغويين والنحاة أمثال علي البصري وعلي القمي والربعي وابن جني ، الذين يريدون أن يشرح الديوان شاعر الديوان نفسه ، وكتابة نصوص الديوان الصحيحة تحت اشرافه ، أو جمع مواد لكتابة شروح مقبلة .

ظل أبو الطيب في بغداد قرابة عام ، واخيرا صرف النظر نهائيا في مطلع شعبان عام ٣٥٢ هـ/نهاية آب ٩٦٣ م عن مشاريع العودة الى سورية وشد الرحال الى الكوفة وما كاد يحط فيها عصا الترحال حتى هاجم القرامطة البلدة ، وهنا نشهد هذا المشهد المذهل : المتنبي ينسى ما سبق له أن قاله فينهمك في الدفاع عن المدينة ويساعد على رد المهاجمين على اعقابهم بانتظار وصول نجدات نظامية .

منذ فترة طويلة ذاعت شهرة ابي الطيب خارج العراق وسورية . واضطر الشاعر أخيرا الى اعتبار دعوته من قبل أحد وجهاء الفرس ، الوزير ابن العميد ، المرتبط بالسلطان البويهي ركن الدولة شيئا طبيعيا حين عرض عليه القدوم الى أرجان للانضمام اليه، على حدود فارس . وفي صفر ٣٥٤هـ /شباط ٩٦٥ م لبى المتنبي هذه الدعوة ، فأقام الى جوار ابن العميد قرابة ثلاثة أشهر ، الوقت الذي استغرق أماديحه ، ثم رحل الى شيراز حيث ينتظره السلطان البويهي عضد الدولة . وتكاد حياته التي بدأت في شيراز تشبه حياته في حلب . فأبو الطيب شاهد كل الحفلات وجميع تنقلات البلاط وينبغي عليه أن يتغنى بما يهم وجود حاميه: حملات عسكرية ، حفلات صيد ، احتفالات بأعياد اسلامية او فارسية . ورغم سخاء عضد الدولة عليه وحفاوة الجميع به ، فان المتنبي لم يلبث أن هفا به الحنين الى الاقطار العربية . ففي مستهل شعبان ٣٥٤ هـ/آب ٩٦٥ م يطلب الاذن الذي يستجاب بسرعة ودون مشقة بعد أن وعد برجعة سريعة هل كان الوعد مخلصا ؟ لن نعرف الحقيقة أبدا ، ولا شك .

غادر شيراز في بحر الشهر ذاته عائدا الى أرجان متوقفا في العراق بواسط حيث أقام عدة

أيام ، وكانت خطته مواصلة رحلته الى بغداد . وعبثا حذره اصدقاؤه من وجود شقاة يعيثون فسادا في الطريق بين واسط وهذه المدينة . مضى صعدا في الجانب الايسر من دجلة ، تصحبه اسرته ويحرسه عبيده وحين وصل الى منتصف الدرب الى عاصمة الخلفاء ، هاجمه البدو فسقط مع رفاقه تحت ضربات اولئك الذين جاء على وصفهم باحتقار:

خرّاب اودية غرثى بطونهم
مكّن الضباب لهم زادٌ بلا ثمن

(رمضان ٣٥٤ هـ/ أيلول ٩٦٥ م) ، ورغم توسلات اصدقائه والمعجبين به ، لم يحاول أحد الثأر لهذا الاغتيال .

لقد رأينا أبا الطيب المتنبي يتخذ الأهبة لجمع قصائده في ديوان يشرحه للمعجبين به في بغداد . وترتب على هؤلاء واجب اكمال مجموعته وذلك بضم القصائد التي لم يستطع هو في حياته ضمها الى ديوانه ، واحتراما له ، الحقوا بديوانه مقطعات ذات قيمة ضعيفة . وهذه الطبعات الرئيسة ـ لأنه يلوح أن ثمة عدة طبعات ـ ضمن القصائد وفقا للشخصيات المدوحة ، وعلى هذا اتبعت نظام التسلسل التاريخي السائب . وبديهي أن دراسة أدبية لا يمكن أن تكتفي بعمليات مضاهاة خاضعة للتسلسل الزمني الذي في حوزتنا ، بغية متابعة إعداد قصائد المتنبي والتطور التاريخي الذي تمثله . إذن فمن الضروري بادىء بدء القيام بتصنيف ديوان أبي الطيب مستهدين بالاشارات الواردة في أبياته ، قبل محاولة تحليل أدبي . فاذا تم الفراغ من هذا العمل التمهيدي ـ مع الاخذ بنظر الاعتبار ما يمثله في بعض المواضع ، من انسياق وراء الاوهام والافتراضات ـ فمن الممكن اللجوء الى التطور في استعمال الاطر من قبل الشاعر .

والمتنبي، مثله مثل جميع الكلاسيكيين الجدد، لا يعرف إلاّ ثلاثة اطر ، التي إذا حُورت وقصرت في بعض المواضع ، ومططت في مواضع اخرى سترقى الى عهد ما قبل الهجرة : وهي الهجاء والرثاء الذي يحوي خطرات استهلالية عن وهن وجودنا ومدحا للميت ، مشبوبا بتسلية اسرته ، وأخيرا القصيدة أو مدح الحي ، التي تنقسم الى قسمين : توطئة غزلية ثم المديح بالذات يدلف محمولا على بيت انتقالي ذي صيغة مفتعلة للغاية . هذه الاطر (الكوادر) التي كانت جامدة جدا ، ذات استعمال يزيد عسرها عسرا كون القصائد تشيد على قافية وحيدة وعلى وزن وحيد .

تلقى ابو الطيب في مستهل حياته أطره دون ان يجري عليها اي تغيير ، ثم بعد ذلك حين لاحت بوادر غضبه الاولى ضد الانسان والحياة ، حاول تغيير احد موضوعات قصائده فرأيناه يحل محل الاسلوب الغزلي في المطالع ، بعض الابيات التي تعبر عن اضطراب افكاره او تلهب خططه :

فؤاد ما تسليه المدام
وعمرٌ مثل ما تَهَبُ اللئام
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ
وإن كانت لهم جثثٌ ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير انهم ملوك
مفتحةٌ عيونهم نيام
خليلك انت لا مَنْ قلت خلي
وإن كثر التجمل والكلام

ونرى النهج نفسه متبعا في معظم القصائد التي يوجهها الى نفسه ، اثناء ثورته في السماوة . فبعد اعتقاله في حمص ، يعود دائما الى الاطار الكلاسيكي الجديد للقصيدة ويتشبث به حتى قطيعته مع بدر الخرشني . ومن المنظور جيدا كذلك أنه اقسر نفسه على هذه الخطة التي فرضتها عليه المواضعات الادبية . وما ان أستطاع في الواقع حتى حاول مجددا التحرر منها ، وذلك بادراجه في قصائده سبحات غنائية باعتبارها استهلالا غزليا . وقد ترسخ هذا المجهود الرامي الى تطويع هذا الاطار اكثر في المقطوعات التي نظمها بعد أن غادر بدر سورية . كان أحيانا كما كان في الماضي ، يحل محل الاستهلال الغزلي الخطرات الغنائية الفلسفية . وأحيانا يختصرها ويتبعها بأبيات من الوحي الشخصي . ولدى وصوله الى سيف الدولة ، عاد المتنبي مجددا مقسورا على معاناة الكلاسيكية الجديدة . ولن ترخي هذه مخالبها عن عنقه حتى ختام حياته . ولكنه الى ذلك أصبح على حذاقة مفرطة في فنه بحيث كان يوفق ، بين الفينة والفينة لتجنب تأليف مطلع غزلي ، سواء بحسن تخلص ، كما في المقطوعة التي منها :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم
أكل فصيح قال شعرا متيم ؟
لحب ابن عبدالله اولى فأنه
به يبدأ الذكر الجميل ويختم

أو بالشروع، دون توطئة سابقة ، بالمدح ،وهو نهج عويص يضطر الشاعر الى اطالة خبر المدح لتجنب عذله على الاقتضاب المخل .

عالج المتنبي مختلف الانواع ، في الاطر الثلاثة التي فرغنا توا من تمحيص تطورها الباطني . وقد وفق في كل ذلك . مع قليل او كثير من الاصالة . والنوع المدحي هو بطبيعة الحال الفريق السائد في شعر المتنبي والاهم . والموضوعات المعالجة هي التي عالجها كافة شعراء المديح . والشخص المشاد به مفطور على الفضائل الاصيلة كائنا من كان هذا المحسن . انه رجل لا حدود لكرمه ، محارب لا تبارى شجاعته ولا تجارى (حين يكون الممدوح اميرا او عاهلا) المعي لوذعي نادر الثقافة . لا وجود لأي بحث سيكولوجي في هذه الصور ، او لأي اتجاه للتفريق بين الاشخاص . فما يستطيع المتنبي قوله عن هذا يستطيع تطبيقه بالتمام على ذلك ، وقد وقع اكثر من مرة للشاعر أن يوجه الى أحد حماته قصيدة مخصصة بالاصل لحامٍ آخر ، دون أن يغير منها إلاّ الاسم .

ولم يشغل النوع القدحي في ديوان المتنبي إلاّ محلا ثانويا ، وإطاره بطبيعة الحال الهجاء . وكثيرا ما نصادف الهجاء كذلك بشكل خطرات قصيرة مبثوثة في قصائد رثاء أو مديح . وفي معظم الحالات تستحيل نزعة الهجاء لدى المتنبي الى قصائد هوجاء السخرية ، بذيئة على الطريقة البدوية . وعلى العكس من ذلك أحيانا ــ وهذه الحالة نادرة في الشعر العربي ولهذا فهي تستحق الاشارة اليها ــ فالمتنبي يضفي على النوع الهجائي غلالة محتشمة تجعله قريبا من المفاهيم الاوربية . ومن هذا النوع هذه الحملة التهجمية على البدو :

وانما نحن في جيل سواسيةٍ
شرٍ على الحرّ من سقمٍ على بدن
حولي بكل مكان منهم خلقٌ
تخطي إذا جئت في استفهامها بمَنِ
فقر الجهول بلا عقلٍ الى أدبٍ
فقر الحمار بلا رأسٍ الى رسن
ومدقعين بسبروتٍ صحبتهم
عارين من حلل كاسين من درن
خرّاب باديةٍ غرثى بطونهم
مكن الضباب لهم زادٌ بلا ثمن

والنوع الغزلي كذلك لا يشغل في ديوان المتنبي إلاّ حيزا ثانوي الاهمية فعداوة المتنبي للنساء تظهر في امثال هذين البيتين :

إذا غدرتْ حسناء وفّتْ بعهدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

ومن خَبَرَ الغواني فالغواني
ضياء في بواطنه ظلام

فالشاعر الذي يعبر عن رأيه في النساء بهذا الشكل لا يستطيع الاشادةبالمرأة إلاّ مضطرا مكرها. والواقع اننا رأينا بأية براعة تهرب من رسم السوانح الغزلية في مطالع قصائده . وحين لم يكن يستطيع التملص من هذا التقليد القدسي المقدس الكلاسيكي الجديد كان يتحتم عليه الالتجاء الى «مهنته» . إذن فالنوع الغزلي يتمثل لدى المتنبي في هيئة مصطنعة ، والمرأة المعشوقة « كالبطل بالذات » الذي كان موضوع بحث آنفا ، لم تكن لها أية شخصية. إنها تذكّر اكثر من كونها توصف . وذلك بمعونة رواسم معروفة . انها اعجوبة في الجمال والحياء ، وفي الخيانة كذلك ، وهي مبعث ألف غصة وغصة في نفس الرجل التاعس الذي اغواه حسنها . ومع ذلك ينبغي ملاحظة ان أبا الطيب نجح أحيانا في إدخال بعض اللمسات التي لا تخلو من طراوة ، على الابتذال العابس المتوارث في قصائده ، كما في هذا البيت :

ولو زلتم ثم لم أبككم
بكيت على حبي الزائل

وتنحصر براعته كذلك في بعث الذكريات وتوسيعها ، دون الاقتصار على جنس معين ، فثمة روسم خاص بالمرأة . على هذه الشاكلة هذان البيتان :

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى
إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به
وعيشا كأني كنت اقطعه وثبا

أما النوع الوصفي ، فعلى نقيض النوعين السالفين ، يحتل مكانه خطيرة في شعر المتنبي . ففي مناسبات عدة يصف الشاعر الحيوانات . هاكم تمثيله الذي يعرضه علينا في أسد :

وردٌ إذا ورد البحيرة شاربا
ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس
في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلاّ ظنتا
تحت الدجى نار الفريق حلولا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه
فكأنه آسٍ يجس عليلا
ويرد عفرته الى يافوخه
حتى تصير لرأسه إكليلا

إن هذه الاوصاف لمواضيع معزولة تغدو لوحة واسعة ، في مقطوعة طردية موجهة الى سلطان شيراز ، عضد الدولة .

بين المروج الفيح والاغيال
مجاور الخنزير للرئبال
داني الخنانيص من الاشبال
مشترف الدب على الغزال
كأن فنّا خمر ذا الافضال
خاف عليها عوز الكمال
فجاءها بالفيل والفيّال
فقيدت الأيّلُ في الحبال
طوع وهوق الخيل والرجال
تسير سير النعم الارسال
معتمة بَيبِس الاجذال
واوفت الفُدُرُ من الأوعال
مرتديات بقسي الضال
نواخس الاطراف للاكفال
يكدن ينفذن من الآطال
لها لحيٌ سود بلا سبال
يصلحن للاضحاك لا الاجلال

يبدو المتنبي في معالجة هذه الموضوعات تلميذا مخلصا لاساتذته من البدو القدماء . فهو يضفي طواعية على اسلوبه هيئة اكل الدهر عليها وشرب تعمق ملامح الشبه البادية على الوصف الوارد في قصائد ما قبل الهجرة .

وأوضح من ذلك أصالته في الشذرات النادرات للغاية لسوء الحظ ، حيث يصف الطبيعة. والملحوظ بجلاء ساطع أن فنانا تستعبده عبودية المواضعات الادبية الى هذا الحد وتستهويه . استطاع جعلنا نشعر بسحر أحد المناظر الطبيعية ، وذلك بنبذه الرواسم ، والاعراب بصدق عما تسر به عيناه من العجائب ... ووصفه لبحيرة طبرية نجاح ليس اعظم منه إلا نجاحه في وصف شعب بوان ، غير البعيد عن شيراز ، وها هو :

مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
غدونا تنفض الاغصان فيها
على أعرافها مثل الجمان
فسرن وقد حجبن الشمس عني
وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي
دنانيرا تفر من البنان
لها ثمرٌ تشير اليك منه
بأشربةٍ وقفن بلا اواني
منازل لم يزل منها خيال
يشيعني الى النوبنذجان
إذا غنى الحمام الورق فيها
أجابته أغانيُّ القيان

هذه الانطلاقة العجيبة ، البالغة الشذوذ في ديوان المتنبي ، قلما توجد في اوصاف المعارك الكثيرة الورود في قصائده ، وفي معظم الحالات يقتصر ابو الطيب على ترديد الرواسم التي لا شبه لها، وعلى تكرار الصيغ المتعارف عليها المجردة من كل قوة استثارة . ومع ذلك فيجب ان نهرع الى استثناء عدد صغير من المقطوعات المهداة الى سيف الدولة. فالمتنبي حين اذهلته عظمة نضال الاسلام ضد بيزنطة، استطاع نسيان نماذجه الادبية فترة من الزمن . فلنصغ اليه مثلا وهو يرسم الخطوط الاولى لحملة ٣٤٢ هـ /٩٥٣ م ، أي فلنسمعه يقول :

وما هي إلاّ خطرة عرضت له
بحرّان لبتها قنا ونصول
فلما تجلّى من دلوكٍ وصنجةٍ
علت كل طودٍ رايةٌ ورعيل
على طرقٍ فيها على الطرق رفعةٌ
وفي ذكرها عند الأنيس خمول
فما شعروا حتى رأوها مغيرة
قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يُمْطِرن الحديد عليهم
فكل مكانٍ بالسيوف غسيل
وأمسى السبايا ينتحبن بحرقةٍ
كأن جيوب الثاكلات ذيول
تسايرها النيران في كل مسلك
به القوم صرعى والديار طلول
وكرّت فمرتْ في دماءٍ ملطيةٍ
ملطية أمٌ للبنين ثكول
وأضعفن ما كلفنه من قبابٍ
فأضحى كأن الماء فيه عليل
ورعن بنا قلب الفرات كأنما
تخر عليه بالرجال سيول
وفي بطن هنزيط وسمنين للظبى
وصم القنا ممن أبدن بديل
تمل الحصون الشم طوال نزالنا
فتلقي الينا أهلها وتزول

نحن هنا بعيدون كل البعد عن الحكايات على الطريقة البدوية التي ما يزال يتمطق بها خصم ابي الطيب ومنافسه الأمير أبو فراس وقد استطاع أن يرتفع بنفسه الى مستوى الاحداث التي يشهدها. وحكايته لها التي جاءت بشكل لمعات البرق وايماضاته ، تمتاز بنفسٍ عميق ملحمي بكل ما في كلمة ملحمي من معنىً ، تستحق كل اطراء واشادة، نظرا لأنها شاذة في الادب الشعري عند العرب ونادرة .

واخيرا ثمة نوع آخر يحتل محل الصدارة في ديوان ابي الطيب ، الا وهو ما يمكننا أن ندعوه بالنوع الغنائي الحكمي ، وذلك لعدم توفقنا الى خلع تسمية افضل ، ونحن نصادفه في مراثي الشاعر وفي قصائد الشاعر من النمط الثاني والثالث .... وهو في معظم الاحيان لا يعبر عن نفسه إلاّ عبر خطرات في بعض الابيات . ومع هذا فانه في بعض الاحوال يهيىء مادة مقطع كامل يضعها الى جوار خطرات اخرى هجائية . والقصيدة التي نظمها حين عاد من بغداد الى الكوفة في شعبان ٣٥٢ هـ/ نهاية آب ٩٦٥ م ، قصيدة نموذجية ، في هذا المجال ... فبعد ان وصف اجتيازه لشبه الجزيرة العربية وساط بها بعض اعدائه البغداديين ، عاد الى أفكاره العنيفة :

توهم القوم أن العجز قربنا
وفي التقرب ما يدعو الى التهم
فلا زيارة إلاّ أن تزورهم
ايدٍ نشأن مع المصقولة الخذُمِ
هوِّن على بصرٍ ما شق منظره
فانما يقظات العين كالحلم
وكن على حذرٍ للناس تستره
ولا يَغُرَّنك منهم ثغر مبتسم
سبحان خالق نفسي كيف لذتها
فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهر يعجب من حملي نوائبه
وصبر جسمي على أحداثه الحطم
وقت يضيعُ وعمرٌ ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم

إن محتوى هذه الخطرات الغنائية الحكمية متنوع كل التنوع لعلها انشودة كبرياء :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الانوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بانني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من به صمم
وجاهل مده في جهله ضحكي
حتى أتته يدٌ فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن ان الليث يبتسم

إن موضوع جميع الخطرات الغنائية التي يرجع تاريخها الى ثورته في السماوة ، وغنائيته تجهل الحساسة الحقيقية . وهي ـ إذا استطعنا القول ـ غنائية دماغية . فعلى سبيل المثال ، حين يعلم المتنبي بموت جدته التي حنا عليها حنواً بنويا صادقا ، لم يجد أية نأمة في قلبه يعكسها عليها : قال :

الا لا أري الاحداث حمداً ولا ذماً
فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى
يعود كما أبدي ويكري كما أرمى
لك الله من مفجوعةٍ بحبيبها
قتيلة شوقٍ غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها التراب وما ضما
طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني
وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما
فأصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما
وكنت قبيل الموت استعظم النوى
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

لا نجد اذن عفوية حقيقية إلا في خطراته التي توحيها دواعٍ فلسفية . كالابيات التالية حول غرور السعادة :

إنعم ولَذَّ فللأمور اواخر
أبداً إذا كانت لهن أوائل
للّهو آونة تمر كأنها
قُبَل يزودها حبيب راحل
جمح الزمان فما لذيذ خالص
مما يشوب ولا سرور كامل

والابيات التالية تصور الثمن الذي ندفعه لشـراء افراحنا :

أبـدا تســتردُّ ماتهـبُ الدُّنـ
ـيا فياليت جـودها كان بخلا !
فكفـت كـون فرحـةٍ تورث الفـ
ـم وخلٌّ يفـادر الوجـد خـلاً
وهي معشوقةٌ على الغـدر لا تحـ
ـفظ عهـداً او لا تتمّم وصـلاً

واخيرا دونكم هذه الابيات التي تدور حول فكرة : « ماذا ننتظر من دهرٍ كل شيء فيه مصيره المـوت » :

هـل الـولد المحبـوب إلا تعلـة
وهل خلوة الحسناء إلاّ اذى البعل
وقد ذقت حلواء البنين على الصـبا
فلا تحسبَنّي قلت ما قلت عن جهل
وما الدهـر أهلٌ أن تؤمل عنـده
حياة وأن يشتاق فيـه الى النسل

إن امتحان اسلوب المتنبي ، سيجر بالضرورة، هو ذاته ، الى دراسة مطولة وان ما يشكل ، في ختام التحليل على صعيد الواقع ، تفوقا للشاعر على فنانين معاصرين له او تالين عليه ، هو ليس اهمية المضمون، وانما فعل الشكل. سنقصر انفسنا والحالة هذه اذن على النص على الملامح الفارقة للفن « المتنبئي » فنقول ان الانواع المختلفة التي عالجها أبو الطيب ، تحل فيها الحرفة بصورة مستمرة تقريبا محل الايحاء. فاستعمال «الرواسم» ثابت حتى في الانواع المدحية والغزلية .

كثيرٌ من النقاد في العصر الوسيط جهلوا بصورة غريبة هذا الاستعمال . وكلمة « سـرقة » كانت تراود اقلامهم ، والعلة بالنسبة إليهم معلومة ، فالواقع ، اننا اذا استثنينا بعض الحالات البالغة الندرة التي عمد فيها الشاعر بملء اختياره الى السرقة من أحد أسلافه الشعراء ، لم يعد الامر يتعدى السطو على الرواسم وبعبارة أدق ، تصدير الصور والموازنات والمبالغات التي هي ملك مشاع لكافة الشعراء . ولنأخذ كمثال في هـذا السياق هذين البيتين للبحتري :

أعيـدي فيّ نظـرة مسـتثيب
توخـى الأجـر او كـره الاثامـا
تري كبـدا محرقـة وعينـا
مؤرقـة وقلبـا مسـتهاما

ضغط أبو الطيب هذين البيتين في بيت واحد زاد فيه ملمحا جديدا .

. . . . . (١)

في هذا العمل القائم على العبث بالرواسم ، أظهر المتنبي براعة فائقة مفرطة . فالى جانب استحواذه على مصادر اللغة كأستاذ لغوي أضاف معرفته بفنون مهنته التي أثارت في حياته نفسها اعجاب معاصريه . ولا شك ان استخدامه للبلاغة ادى الى ركوب متن الشطط احيانا . كما في هذا البيت :

فبعده والى ذا اليـوم ركضـت
بالخيل في لهوات الطفل ما سـعلا

* * *

وإذا سـكت فأنت أبلـغ خـاطب
قلـم لـك اتخـذ الاصـابع منبرا
أوه بديـل مـن قـولتي واهـا
لمـن نـأت والبـديل ذكراهـا
آه لمـن لا أرى محاسـنها
وأصـل واهـاً وأوه مرآهـا

ومع ذلك ففي بعض الاحيان تنجب بلاغة المتنبي لقطات جديدة حقا . فان المعنى ونقيضه حالة معروفة لدى المتنبي ، وهي بصـورة عامـة متوازنة أتم التوازن .

والامثلة على ذلك تعرض لنا بالعشـرات . واليـكم انجحهـا :

أزورهم وسـواد الليـل يشفع لي
وانثني وبياض الصـبح يغري بي

والمقارنة والصورة عديدتان لذلك في شعره . بل هما أحيانا بمثابة اكتشافات موفقة . منها :

ولا تشـكّ الى خلـقٍ فتشـمته
شكوى الجريح الى العقبان والرخم

* * *

وغيظٌ على الايام كالنـار في الحشا
ولكنه غيظ الأسـير عـلى القـد

* * *

إنمـا أنفس الأنيس سـباعٌ
يتفارسـن جهـرةً واغتيـالا

---

(١) لم نجد هذا البيت في أصل الترجمة العربية ولربما سها الاستاذ المترجم عنه (المورد)

بمقدورنا كذلك أن نشير الى الأمثلة الوفيرة على المجانسة والتبدل المفاجىء والقلب لدى المتنبي التي تدل على حذق لا يصدق في شعره . ومع ذلك فالافضل أن نلتفت الى مظهر آخر من مظاهر نبوغ أبي الطيب ، أي الايجاز في اسلوبه .

صحيح أن هذه الصفة ليست مقصورة عليه. فان الشرعة التي تنص على عدم المعاظلة ، أي تعلق معنى البيت بالبيت الذي يليه كانت نتيجتها فرض مثل اعلى للشاعر العربي هو تركيز فكره في بيت واحد كلما كان مقتضبا مصوغا صياغة صارمة كان أفضل . ومع ذلك فبوسعنا القول ان قلة من شعراء اللغة العربية عرفت اكثر من أبي الطيب الانصياع لهذه القاعدة . وليس ثمة مقطوعات من مقطوعات ديوانه ، حتى الضعيفة منها ، الا وتمثل ، في اي نوع من الانواع ، عدة نماذج على الاقتضاب الرائع. وبهذه الوسيلة ، فان اتفه الافكار وفقت الى الظهور بمظهر البروز الاستثنائي والابيات التالية ، لو صبت في قالب تتري لما مثلت أكثر من موضوع ثرثرة . وحتى الحكم التي لايصى لها عدد ، التي رصعت بها مقطوعات المتنبي لن تعود سوى بديهيات عادية لو سحبت من القالب المحكم الذي صبت فيه :

أنا ابن اللقاء انا ابن السخاء
انا ابن الضراب انا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي انا ابن القوافي
أنا ابن الروج انا ابن الرعان

ومع هذا فلا ينبغي أن يخدع أبو الطيب (وهو الفنان الذي لا يشق له غبار) أحد المفكرين أنا اعلم ان هذه الكلمة سيكون لها وقع بغيض . ورغم هذا فنحن لا نستطيع دون انتهاك العدالة ، أن نقصر انفسنا على أن نرى في شاعر الكوفة ، مجرد ملاعب للرواسم ، او محض مدّاح ، حنى هامته للمنعنات الادبية في عصره . ولكنه لا يقدر على ابراز وجه الشاعر المجدد .... إن لدى صناجة سيف الدولة جانب من نفسه أعرب عنه باستحياء ، هذا حق ولكنه عبر عنه بنجاح ، نجاح كبير جعل صداه يرن في اسماعنا بعد الف سنة من قوله ، ويحرك نفوسنا ، وهو مماثل حتى يومنا هذا لشكوكنا وتألماتنا . وأفلح المتنبي كذلك بما كتبه من خواطر غنائية حكمية أن يعبر عن الفزع من الموت وعن الريب والتردد ، بعبارات مركزة :

إني لأعلم واللبيب خبير
أن الحياة وان حرصت غرور

وعن نسبية انفعالاتنا :

كثير حياة المرء مثل قليلها

وعن قوة النسيان :

وللواجد المكروب من زفراته
سكون عزاءٍ او سكون لغوبِ

وأجاد في تمثيل قحولة تكالباتنا في هذاالعالم. فقال :

تملكها الآتي تملك سالبٍ
وفارقها الماضي فراق سليب

وأحسن في تصوير غربة الانسان الرفيع : فهتف :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وعكس لنا أخيرا ، ولعل هذا أسوأ ما في وضعنا البشري ، هذا المشهد :

لله حال أرجيها وتخلفني
واقتضي كونها دهري ويمطلني

هل هذه عناصر متماسكة لمذهب ؟ أيد بعضهم هذا الرأي . فلو أمعنا النظر في الاشياء ، فربما لن يضيف هذا الرأي شيئا الى مجد المتنبي ، لأن تفكير الشاعر لا يلوح ككل ، وانما كأجزاء مبعثرة ، مدسوسة كأجزاء صغيرة في اشعاره المختلفة كل الاختلاف بل المختلطة كل الاختلاط . الا فلنضرب عن التحدث عن مذهب . وبعد فان شاعراً من الشعراء ليس فيلسوفا من الفلاسفة ولا يمكننا أن نطالبه بمنهج محدد المعالم واضح التقاطيع، متجانس متماسك ، ولكن بوسعنا مع ذلك أن نعتقد كذلك بأنه لم يفشل في لعب دوره عندما أثار في بعض أبياته مشاكل أزلية . ألا فلنعترف أن جوانب عديدة لدى أبي الطيب المتنبي تخلّد منه فنانا متصنعا ، مناهضا للطبيعة ، لاشخصيا ، أنجبه القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي . ومع ذلك ففي معظم الاحيان ورغم تسلط الاعراف عليه ، يلوح أنه استكشف طبيعة الشعر الحقيقي نفسها ، تلك الطبيعة التي لا صلة لها بأي زمان ، والتي يشعر الشعراء بها ولكنهم لا يعبرون عنها إلاّ بشق الانفس .

ملحق(*)

اعادة تصنيف ديوان المتنبي حسب التسلسل الزمني :

ملحوظة : الطبعات المتخذة أساسا لاعادة هذا التصنيف هي :

١ ــ العكبري : التبيان في شرح الديوان ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، جزءان .

٢ ــ اليازجي : العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ، بيروت ١٣٠٥ هـ جزء واحد .

٣ ــ الواحدي : شرح ديوان المتنبي ، طبعة ديتريسي ، برلين ١٨٦١ ، جزء واحد .

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافية	الإهداء
١	٥	٣	٤٠١/٢	النون	
٢	٦	٣	٤١٢/١	العين	
٣	١٦	٨	١٢٨/١	الباء	
٤	١٥	٧	ـــــ	اللام	
٥	٥٩	٣٣	٣٩٢/١	العين	
٦	٩٢	٢٢	١٣٣/٢	اللام	
٧	٣٤٧	٧	٢٨٧/١	الدال	
٨	١٧	١٠	٢٩٥/٢	الميم	الى أبي الفضل
٩	٦	٣	١٨٢/١	الدال	الى محمد بن عبيدالله
١٠	٢٤	١٢	١٢٢/٢	اللام	الى سعيد بن عباس
١١	٣٨	٢٢	٤٤٥/١	القاف	الى أبي شجاع محمد
١٢	٦٦	٣٨	١٣٤/٢	اللام	الى شجاع بن محمد
١٣	٧٢	٤١	٢٠٢/١	الدال	الى شجاع بن محمد
١٤	٤٢	٢٤	٣٨٤/١	العين	الى ابن أحمد الطائي
١٥	٨٨	١٩	٣٥٣/١	السين	الىعبيدالله بن خراسان
١٦	٣٥	١٨	١٢٩/٢	اللام	الى عبيدالله بن خراسان
١٧	٣٦	١٨	٢٠١/١	الدال	الى عبيدالله بن خراسان
١٨	٤٨	٢٨	٤٠٣/٢	النون	
١٩	١١٦	٦٦	٣١٧/١	الراء	الى محمد بن اسحاق التنوخي
٢٠	١٢١	٦٩	٧٠/١	الباء	الى محمد بن اسحاق التنوخي
٢١	١٢٢	٧٠	٤٥١/١	القاف	الى حسين بن اسحاق التنوخي
٢٢	١٢٧	٧٣	٨/١	الهمزة	الى حسين بن اسحاق التنوخي

* آثر الاستاذ المترجم ان ينشر هذا الملحق بالفرنسية ، ولكننا كلفنا الآنسة هدى شوكة بهنام والاستاذ عبد الحميد جيدة ، المحررين في المجلة ، بترجمته الى العربية (المورد) .

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافيـة	الإهـداء
٢٣	١٢٨	٧٤	٣٠٨/٢	الميـم	الى حسين بن اسحاق التنوخي
٢٤	١٤٣	٨٣	٣٩٣/١	العـين	الى علي بن ابراهيـم التنوخي
٢٥	١٤٨	٨٧	٣١٦/٢	الميـم	الى علي بن ابراهيـم التنوخي
٢٦	١٣٧	٧٩	٢١٨/١	الـدال	الى علي بن ابراهيـم التنوخي
٢٧	١٥٤	٩٢	٧٢/١	البـاء	الى المفيث بن بشـر العجلي
٢٨	١٦٠	٩٦	٣٢٣/٢	الميـم	الى المفيث بن بشـر العجلي
٢٩	٢٩	١٤	١٩٤/١	الـدال	
٣٠	٢٣	١١	٣٠٠/٢	الميـم	
مكرر ٣٠	٥٨٩	٤٥٢	٢٨١/٢	الميـم	
٣١	٥٨	٣٣	٧٠/١	البـاء	الى ابي سعيد المجيمري
٣٢	٢١	٩	١٢١/٢	الـلام	
٣٣	٨٤	٤٦	٣٠٧/٢	الميـم	الى معاذ بن اسماعيل
مكرر ٣٣	٦٠	٣٤	٤٥١/١	القـاف	
٣٤	٥٢	٣٠	٣٠٠/٢	الميـم	
٣٥	٤٩	٢٨	١٣٠/٢	الـلام	
٣٦	٨٦	٥٠	٣٥٧/١	السين	
٣٧	٨٦	٥٠	٣٠٧/٢	الميـم	
٣٨	٨٧	٥١	٧٠/١	البـاء	
٣٩	٨٥	٥٠	١٥١/١	الهـاء	
مكرر ٣٩	٦١	٣٥	٣٠٩/١	الـراء	الى اسحاق بن كيغلغ
٤٠	٨٠	٤٧	٢١١/١	الـدال	الى اسحاق بن كيغلغ
مكرر ٤٠	٩٣	٥١	٣٥٧/١	السين	الى محمد بن زريق
٤١	٩٩	٥٥	٤/٢	الكاف	الى ابي احمد عبيدالله بن يحيى البحتري
٤٢	١٠١	٥٦	٣١٤/١	الـراء	الى ابي احمد عبيدالله بن يحيى البحتري
٤٣	١٠٤	٥٩	٢١٦/١	الـدال	الى ابي عبادة بن يحيى البحتري
٤٤	١٦٦	١٠١	٤١٣/١	الفـاء	الى ابي الفرج أحمد بن الحسين
٤٥	١٧٢	١٠٥	٨٠/١	البـاء	الى علي بن منصور
٤٦	١٧٧	١١٠	٣٣٠/٢	الميـم	الى ابي حفص عمر بن سليمان الشرابي

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافيـة	الإهـداء
٤٧	١٨٢	١١٤	٣٩٩/١	العين	الى عبدالواحد بن العباس بن ابي الاصبع
٤٨	١٨٦	١١٨	١٤١/٢	الـلام	الى عبدالرحمن بن المبارك
٤٩	١٩١	١٢٢	١٠/١	الألف	الى ابي علي الاوراجي
٥٠	٢٠١	١٢٨	١٤٨/٢	الـلام	الى ابي علي الاوراجي
٥١	٢٤٢	١٦٠	٣٢٣/١	الـراء	
٥٢	٢٤٣	١٦٠	٤٥٧/١	القاف	
٥٣	٢٢٣	١٤٤	٨٦/١	البـاء	الى بدر الخرشني
٥٤	٢٣١	١٥٠	٧/٢	الكاف	الى بدر الخرشني
٥٥	٢٣١	١٥١	١٧٧/٢	الـلام	الى بـدر الخرشني
٥٦	٢٣٨	١٥٦	٣٢٣/١	الـراء	الى بـدر الخرشني
٥٧	٢٠٦	١٣٢	٢٢٦/١	الـدال	الى بـدر الخرشني
٥٨	٢١٠	١٣٤	١٥٣/٢	الـلام	الى بـدر الخرشني
٥٩	٢١٦	١٣٩	١٦١/٢	الـلام	الى بـدر الخرشني
٦٠	٢٢٤	١٤٥	١٦٨/٢	الـلام	الى بـدر الخرشني
٦١	٢٣٢	١٥١	٤٠٧/٢	النـون	الى بـدر الخرشني
٦٢	٢٤٥	١٦٣	٣٣٨/٢	الميـم	الى علـي بن احمـد المري الخراساني
٦٣	٢٥١	١٦٨	٣٢٤/١	الـراء	الى علـي بن احمـد المري الخراساني
مكرر ٦٣	٢٥١	١٦٨			
٦٤	٢٥٣	١٧٠	٤١٦/٢	النـون	الى محمد بن عبدالله الكاسـبي
٦٥	٢٦٠	١٧٥	٣٤٤/٢	الميـم	في رثاء جدة الشـاعر
٦٦	٢٦٥	١٧٩	١٧٩/٢	الـلام	الى ابي الفضل أحمـد بن عبدالله الأنطاكي
٦٧	٢٧١	١٨٥	٤٢٣/٢	النـون	الى ابي سهل سـعيد الانطاكي
٦٨	٢٧٧	١٨٩	١٤٠/١	التـاء	الى ابي ايوب أحمـد بن عمـران
٦٩	١٠٧	٦٠	١٥٢/١	الهـاء	الى ابي المظفر مساور الرومـي
٧٠	١١٣	٦٤	٢٨٨/١	الـذال	الى ابي المظفر مساور الرومـي
٧١	٢٨٤	١٩٤	٣٢٩/١	الـراء	الى علـي بن احمـد بن عـامر
٧٢	٢٩٠	١٩٩	٨٨/١	البـاء	الى علي بن محمد بن سـيار

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	المكبري	القافيـة	الإهـداء
٧٣	٢٩٦	٢٠٤	٢٣٠/١	الـدال	الى محمـد بن سيار
٧٤	٣٠٤	٢٠٩	٣٤٥/١	الزاي	الى علـي بن صـالح الروذباري
٧٥	٣١٠	٢١٤	٢٣٨/١	الـدال	الى الحسـين بن علي الخراسـاني
مكرر ٧٥	٨٧٦	٦٤٠		العين	الى محمد الاخشيد
٧٦	٣٢٤	٢٢٧	٢٤٥/١	الـدال	الى الحسن بن عبيدالله
٧٧	٣١٥	٢١٨	٣٥٠/٢	الميـم	الى الحسن بن عبيدالله
٧٨	٣٢٧	٢٣٠	٩٥/١	البـاء	الى طاهر بن الحسين العـلوي
٧٩	٣٣٤	٢٣٥	٤٥٨/١	القاف	
٨٠	٣٣٨	٢٣٨	٣٥٦/٢	الميـم	
٨١	« زيـــــادات »		رقم ٢	الـدال	في هجاء مجهولين
٨٢	٣٣٩	٦٢٩	٣٥٧/٢	الميـم	في هجاء اسحق بن كيغلغ
٨٣	٣٤٥	٢٤٠	١٨٩/٢	الـلام	في هجاء اسحق بن كيغلغ
٨٤	٣٤٥	٢٤٠	٤٦٢/١	القاف	في هجاء اسحق بن كيغلغ
٨٥	٣٥٥	٢٤٧	٣٦٦/١	الشين	الى ابي العشائر
٨٦	٣٤٨	٢٤٢	٤٦٤/١	القاف	الى ابي العشائر
٨٧	٣٦٢	٢٥٢	١٨٩/٢	الـلام	الى ابي العشائر
٨٨	٣٦٨	٢٥٦	٤٥١/٢	الهـاء	الى ابي العشائر
٨٩	٣٧٣	٢٦١	٢٢٩/٢	الميـم	الى سيف الدولة
٩٠	٣٨٣	٢٦٧	٢٤١/٢	الميـم	الى سيف الدولة
٩١	٣٨٦	٢٦٩	١٧/٢	الـلام	الى سيف الدولة
٩٢	٣٨٨	٢٧١	٢٠/٢	الـلام	في رثاء والدة سيف الدولة
٩٣	٣٩٥	٢٧٦	٢٩/٢	الـلام	الى سيف الدولة
٩٤	٤٠٢	٢٨١	٣٨/٢	الـلام	الى سيف الدولة
٩٥	٤٠٦	٢٨٤	٢٩٠/١	الـراء	الى سيف الدولة
٩٦	٤٠٨	٢٨٦	٤٣/٢	الـلام	في رثاء ابي الهيجاء
٩٧	٤١٦	٢٩١	٥٠/٢	الـلام	الى سيف الدولة
٩٨	٤٢٣	٢٩٦	٢٤٥/٢	الميـم	الى سيف الدولة
٩٩	٤٢٤	٢٩٧	٤٢١/١	القاف	الى سيف الدولة
١٠٠	٤٣٠	٣٠١	١٦٢/١	الـدال	في رثاء ابي وائل تغلب
١٠١	٤٣٩	٣٠٨	٢٤٦/٢	الميـم	الى سيف الدولة
١٠٢	٤٤٥	٣١٣	٥٨/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١٠٣	٤٥٠	٣١٧	١٤٨/١	الجيم	الى سيف الدولة

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافيـة	الاهـداء
١٠٤	٤٥١	٣٠٩	٣٧٥/١	العين	الى سيف الدولة
١٠٥	٤٥٨	٣٢٤	٣٨٧/٢	النون	الى سيف الدولة
١٠٦	٤٦٠	٣٢٦	١٦٦/١	الدال	الى سيف الدولة
١٠٧	٤٦٧	٣٣١	٣٣/١	البـاء	في رثـاء يماك مملـوك سيف الدولة
١٠٨	٤٧٢	٣٣٤	٣٨/١	ـــ	الى سيف الدولة
١٠٩	٤٧٩	٣٤٠	٣٩٠/٢	النون	الى سيف الدولة
١١٠	٥١٢	٣٨٠	٢٩٥/١	الـراء	الى سيف الدولة
١١١	٤٨٦	٣٤٨	٤٧/١	البـاء	الى سيف الدولة
١١٢	٥٨١	٣٤١	٢٥٤/٢	الميـم	الى سيف الدولة
١١٣	٤٨٦	٣٤٥	٣١/١	الالف المدودة	الى سيف الدولة
١١٤	٤٨٧	٣٤٨	٦٤/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١١٥	٤٩٧	٣٥٨	٤٢٨/١	القاف	الى سيف الدولة
١١٦	٥١٤	٣٦٩	٧٧/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١١٧	٥٢٢	٣٧٦	١٥٠/١	الهـاء	الى سيف الدولة
١١٨	٥٢٥	٣٧٧	٣٧٣/١	الضاد	الى سيف الدولة
١١٩	٥٢٣	ـــ	٤٨/١	البـاء	الى سيف الدولة
١٢٠	٥٢٦	٣٧٩	٢٦٢/٢	الميـم	الى سيف الدولة
١٢١	٥٢٧	٣٨٢	٢٩٧/١	الـراء	الى سيف الدولة
١٢٢	٥٦٧	ـــ	٣٩١/٢	النون	الى سيف الدولة
١٢٣	٥٢٩	٣٧٤	١٧٤/١	الدال	الى سيف الدولة
١٢٤	٥٣٦	٣٨٩	٢٩٨/١	الـراء	الى سيف الدولة
١٢٥	٥٣٧	٣٩٠	٨٩/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١٢٦	٥٤٣	٣٩٦	٥٠/١	البـاء	الى سيف الدولة
١٢٧	٥٤٨	٤٠١	٢٦٤/٢	الميـم	الى سيف الدولة
١٢٨	٥٥٦	٤٠٧	٢٧٥/٢	ـــ	الى سيف الدولة
١٢٩	٥٥٩	٤١١	٤٣٦/١	القاف	الى سيف الدولة
١٣٠	٥٦٨	٤١٨	٢٩٩/١	الـراء	الى سيف الدولة
١٣١	٥٨٣	٤٣٢	١٠٤/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١٣٢	٥٧٧	٤٢٧	٩٦/٢	ـــ	في رثاء اخت سيف الدولة الصغرى
١٣٣	٥٩٤	٤٣٩	٣٩٣/٢	النون	الى سيف الدولة
١٣٤	٦٠٠	٤٤٤	٢٨٧/٢	الـلام	الى سيف الدولة
مكرر ١٣٤	٣٢٦	٢٢٩		الـراء	الى الحسن بن عبيدالله
رواية اخرى ١٣٤	ـــ	ـــ		الدال	الى الحسن بن عبيدالله

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافيـة	الإهـداء
١٣٥	٦٢٣	٤٧١	٤٦٢/٢	اليـاء	الى كافـور
١٣٦	٦٣١	٤٧٨	٢٢/١	الالف المدودة	الى كافور
١٣٧	٦٣٣	٤٨٠	١٠٣/١	البـاء	الى كافـور
١٣٨	٦٤٠	٤٨٦	٢٤٧/١	الدال	الى كافـور
١٣٩	٦٤٨	٤٩٢	٤٥٣/٢	اليـاء	الى كافـور
١٤٠	٦٤٩	٤٩٣	٣٦٦/٢	الميم	الى كافـور
١٤١	٦٥٦	٤٩٨	٢٥٥/١	الدال	الى كافـور
١٤٢	٦٦٠	٥٠٢	١١٢/١	البـاء	الى كافـور
١٤٣	٦٨٠	٥١٥	١١٩/١	—	الى كافـور
١٤٤	٦٦٧	٥٠٨	٤٣١/٢	النون	الى كافـور
١٤٥	٦٥٤	٥٤٦	٣٦٤/١	السين	في هجاء كافور
١٤٦	٦٧١	٥١١	٤٣٥/٢	النون	في الفخر
١٤٧	٥١٢	٦٧٢	٤٣٧/٢	—	الى كافـور
١٤٨	٧٠٤	٥٢٥	١٩٧/٢	الـلام	الى فاتك
١٤٩	٦٧٥	٥٢٠	٣٧١/٢		الى كافـور
١٥٠–١٥٣	٦٢٩	٣٤٢	٣٧٦/٢		في هجاء كافـور
			٤٤١		في هجاء كافـور
			٤٧١		في هجاء كافـور
١٥٤	٦٩١	٥٤٧	١٩٦/٢	الـلام	في هجاء كافـور
١٥٥	٧١١	٥٣١	٤٠٥/١	العين	في رثاء فاتك
١٥٦	٦٩٥	٥٥٦	٤٤٢/٢	النون	الى عبدالعزيز الخزاعي
مكرر ١٥٦		٦٤١		—	الى عبدالعزيز الخزاعي
١٥٧	٦٩١	٥٤٨	٢٦٠/١	الدال	في هجاء كافـور
١٥٨	٦٩٦	٥٥٧	٤٥٤/٢	الهـاء	في هجاء شيخ بدوي
١٥٩	٦٩٧	—	١٣٨/١	البـاء	في هجاء شيخ بدوي
١٦٠	—	—	٤٢٠/١	الفـاء	في هجاء شيخ بدوي
١٦١	٨٧٩	٦٤٥		البـاء	الى شيخ بدوي
١٦٢	٦٩٨	٥٥٨	٣٢٩/١	الـراء	الى عبيـده
١٦٣	٧١٦	٥٤١	٣٧٩/٢	الميـم	الى الكوفيين
١٦٤	٦٩٩	٥٥١	٢٥/١	الالف المدودة	في الفخر
١٦٥	٨٧٨	٦٤٦		الـراء	في الفخر
مكرر ١٦٥	٨٧٩	٦٥٠		العين	في الفخر
١٦٦	٦١٣	٤٥٦	١١٣/٢	الـلام	الى سيف الدولة
١٦٧	٧١٨	٥٣٦	٣٨٠/٢	الميـم	في الفخر
١٦٨	٧٢٣	٦٣٢	١٢٩/١	البـاء	في هجاء ضبة

نظام التصنيف الجديد	الواحدي	اليازجي	العكبري	القافيـة	الإهـداء
١٦٩	٦١٨	٤٦٦	٦٤/١	البـاء	الى سيف الدولة
١٧٠	٧٢٦	٥٥٩	٢٠٥/٢	الـلام	الى دلير
١٧١	٧٣٢	٥٦٤	٣٣٦/١	الـراء	الى ابن العميد
١٧٢	٧٤١	٥٧١	٢٦٥/١	الدال	الى ابن العميد
١٧٣	٧٥٠	٥٧٨	٢٧٣/١	—	الى ابن العميد
١٧٤	٧٥٨	٥٨٤	٤٥٥/٢	الهـاء	الى عضد الدولة
١٧٥	٧٦٦	٥٨٩	٤٤٣/٢	النون	الى عضد الدولة
١٧٦	٧٧٣	٦٠٧	٣٨٦/٢	الميـم	الى عضد الدولة
١٧٧	٧٧٥	٥٩٦	٢١٢/٢	الـلام	الى عضد الدولة
١٧٨	٧٨٦	٦٠١	٢٨١/١	الدال	الى عضد الدولة
١٧٩	٧٨١	٦٠٨	١٣٢/١	البـاء	في رثاء عمة عضد الدولة
١٨٠	٧٩٢	٦١١	٢٢٠/٢	الـلام	الى عضد الدولة
١٨١	٨٠٠	٦١٩	٩/٢	الكاف	الى عضد الدولة

المتنبي امام العصر الاسماعيلي الاسلامر

ان النصوص العربية للمؤلفين الاسماعيليين القدماء المعثور عليها حديثا في سورات وبومبي ضمن مجموعات خاصة من قبل السيدين ايفانوف Ivanov والهمداني Hamadani تجعلنا نفهم بصورة افضل المظهر المزدوج للقرن العاشر في الشرق : هذا القرن الرابع للاسلام ، الذي سماه ميتز « نهضة »(١) . نهضة ، من وجهة نظر الفلسفة والعلم العتيق ، بحق (ولكن بدون الفنون) ـ مع ، وبتعمق اعظم، تلوين جديد للعاطفة الدينية المسلحة التي هي في الوقت نفسه ساخطة ومشوهة الى حد التجديف وذلك بمذهب متمسح اجتماعي ، ناجم من هذه الصيغة الثورية للمشروعية الاسماعيلية إبان القرن الرابع الهجري ، المستهل باعلان الخلافة الفاطمية في المهدية ، والمختوم بالاذاعة الخرساء للموسوعة الكبرى لاخوان الصفا ، بوسعه أن يدعها « العصر الاسماعيلي » للاسلام : حينذاك كانت الدعاية المعنية بالجمعيات السرية القرمطية قد تسربت من الكوفة ، بوصفها مركزا ومحورا ، الى كل أرجاء الامبراطورية العباسية ، فأحاطت ببغداد إحاطة السوار بالمعصم ، وهناك عمليات اعدام « المتآمرين » القرامطة تتوالى ، انطلاقاً من صلب الحلاج سنة ٣٠٩ هـ . وها نحن اولاء مزودون الآن بوثائق عن القرامطة والاسماعيليين مستعينين بمؤلفيهم انفسهم ، وهذا ما يسمح لنا بمتابعة ترشح افكارهم وتسربها الى الفكر الادبي العربي بأسره في تلك الحقبة .

(١) يعتبر هذا البحث من المقابسات التي اعتادها ماسينيون حيال التفسير الباطني للظاهرة الثقافية . وهنا تجد هيئة تحرير المورد نفسها على خلاف معه في بعض ما زعم ، وقد جنحت ـ باديء الامر ـ الى حذف ما يوجب الحذف، ولكنها آثرت الحفاظ على النص كاملا مراعاة للامانة العلمية أولا ، وشوقا الى محاكمة الرأي المطروح ثانيا .. (المورد) .

سبق لأبي العلاء المعري أن وقف النقد الادبي منه موقفه أمام الامر الواقع : والذين وفقوا الى قراءة كتاب المجالس الذي عثر عليه حديثا لاستاذه وصديقه المؤيد السلماني الشيرازي ، الذي لم يكن سوى داعي الدعاة للاسماعيلية ، ليعلموا أن المرارة الشكية للزّوميات ولرسالة الغفران لا يمكن ان تعتبر بعد اليوم كشذوذ فردي ، وانما تؤكد على تفريخ الشك المنظم والسخرية الثورية المكظومين في التعاليم المبثوثة لدى جمعيات الفكر الاسماعيلية على صعيد نفسي مؤات ملائم .

والحالة نفسها بشأن المتنبي : فان مؤرخ الأدب لم يعد بوسعه إهمال هذه المغامرة الخطرة الشابة التي اعتقل خلالها بوصفه نبياً مزيفا « متنبئاً »(٢) .. هذه المجازفة التي هوّن من أمرها

(٢) جاء في الصبح المنبي : قال ابو عبدالله معاذ بن اسماعيل: قدم ابو الطيب المتنبي اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاث مئة وهو فتى ، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته . فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل افتناما لمشاهدته واقتباسا من أدبه ، قلت : والله انك لرجل خطير تصلح لمنادمة ملك كبير ، فقال : ويحك اتدري ما تقول ؟ أنا نبي مرسل . فظننت انه يمزح ، ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته . فقلت له : ما تقول ؟ فقال : انا نبي مرسل كما ذكرت . فقلت : مرسل الى من ؟ فقال : الى هذه الامة الضالة المضلة . قلت : ماذا تفعل ؟ قال : املأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . قلت بماذا ؟ قال : بأدرار الارزاق والثواب العاجل والآجل لمن اطاع واتى وضرب الاعناق لمن عصى وابى . فقلت له : ان هذا امر عظيم اخاف عليك منه ان يظهر ، وعدلته ، فانشد يقول بديها وذكر هذه الابيات :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا
ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان اجابوا فما قصدي بها لهم
وان تولوا فما ارضى لها بهم

ميتز بعد النهشلي ، ولكن بلاشير ردّ رداً مناسبا جدا على هذا الموقف بمقاله في دائرة المعارف الاسلامية . وهذا التقويم من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي والديني هو الذي اريد أن اشدد عليه واوسعه محتالا عليه بجمع بعض الملاحظات تحت عنوانين رئيسيين :

١ ــ المتنبي، المولود في الوسط اليماني الشيعي الكوفي ، تشكل هناك وفي البادية ، في جوّ قرمطي بصورة خاصة .

٢ ــ حين اندحر بوصفه ثائرا بدويا ، لم يطأطىء هذا القرمطي القديم راسه بالتمام ابدا ــ ولم يتكيف تكيفا كاملا للشيعية المحافظة ، شيعية امراء سورية ومحسنيها الحمدانيين ، فهذا البدوي لم يتحضر التحضر المطلوب في المدن . لقد وجد نفسه مضطرا على التكسب بقصائده ، فتكسب بجراة واندفاع ينمان دائما عن سنخه البدوي ، وعن مرارة ميتافيزيقية اسماعيلية كل الاسماعيلية .

(١)

الكوفة الوسط العائلي ، والدور الراجح للكلابيين في الانتفاضات القرمطية في الصحراء

ان دراسة الاوساط الاجتماعية في الكوفة ايّاً كانت أهميتها لفهم القرون الثلاثة الاولى للاسلام العربي .. شرعت في ايتاء اكلها ولنلاحظ ، بالنسبة للمتنبي ، ان محلته المولدية كندة ، كانت شيعية ، وكان جعفيا من جهة قبيلة ابيه ، عبدان السقا ، الذي كان تعلقه مشهورا بالائمة . واخيرا فان جدته ، العضو الوحيد من اسرته الذي لم يأنف من ذكره ، كانت بشهادة احد العلويين ــ الذي هو مرجعنا الوحيد لهذه الفترة ــ « امراة تقية ورعة » من قبيلة همدان ، العشيرة الشيعية قلبا وقالبا ، حيث النساء العربيات يجرؤن على البكاء على الحسين في السنة التالية لموته ذاتها . واذا كان المتنبي ، لبعض الاسباب ، يتحدث قليلا عن ذويه ، فانه يجاهر بالقول بأنه يماني ومن الكوفة(٢). وستجدون في خططنا الاحياء الاخرى التي ذكرها في أشعاره : البارق ، الساكون ، الثوية . وفي حرف الكوفة الصغرى (كحرفة السقاء) ظهرت الشيعية مبكرا بمظهر ثوري يدعو الى المساواة : ثمة فرقة متطرفة ، معروفة الآن أحسن من قبل ، هي الخطابية ، كانت قد نجحت في تأسيس حركة واسعة سرية الاهداف ، قبل عام ١٣٨ هـ ، واتخذت من الكوفة مركزا لها ، فضمت الى جانبها كافة بلدان الاسلام الكبرى ، وذلك بفضل أصحاب الحرف : المؤامرة القرمطية ، أو اذا شئنا ، الاسماعيلية : التي شرعت منذ عام ٢٨٠ هـ بالعمل المباشر ، وبالتمرد ، فاجتاحت الكوفة خمس مرات (في الاعوام ٢٩٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ الهجرية) . وباستنادها الى دارين عسكريتين للهجرة ، على جانبي بادية السماوة : الاولى غير بعيدة عن مشارف الكوفة (ويعلق موزيل Musil قائلا : لعل ذلك قرب قصر الاخيضر الحالي) والاخرى غير نائية عن مشارف حمص ، في منطقة السالمية (أي في الجبل الاعلى) ولنلاحظ الآن ، ان الجانب الاخير من نصيب فخذ بني كلب ، بني عدي ، الذي بادارته من قبل بني عليش بن ضمضم ، كان قد نذر نفسه حتى الموت عام ٢٨٩ هـ للعمل على ظفر السلالة الفاطمية بالسلطان ، جارّا معه اقرباءه بني الاصبغ . وحين انهاروا عام ٢٩٥ هـ من جراء خمس سنوات من القمع الدامي ، ولاذ بالفرار الى افريقية آخر من ظل من الرؤساء ، وهو عبيدالله (الذي ولد سنة ٢٥٩ هـ في السالمية) ثار هؤلاء من جديد عام ٣١٨ هـ . وعلى هذا فان هذا الفخذ نفسه من بني عدي السالمية الذي سيجر بني كلب الى دعوة المتنبي ، عام ٣٢٦ هـ ، تخفق راياتهم حتى اللاذقية . فنحن مرغمون أذن على التسليم بأن هذا الفتى اليافع قد أوصى به الزعماء الاسماعيليون خيرا ، وكانوا قادة المؤامرة الفاطمية ، لاسباب وجيهة ، سواء كانت وشائج القربى او الانتساب المذهبي .

اما الشيعة الثوريون والمسوية كالقرامطة فان الرباط الحقيقي العائلي كان الانتساب (النكاح الصحيح) ، كان ابو الخطاب يلقب بأبي اسماعيل « والد الابن الاكبر للامام جعفر » وبصورة معكوسة، حسب مذهب الدروز الباطني ، الذي كان مذهب السلالة الفاطمية ، فان هذه السلالة لم تنحدر الاّ « روحيا » من الامام محمد بن اسماعيل ، الذي كان مدرب جده « الجسدي » ، عبدالله بن ميمون القدّاح ، المتوفى في سجن الكوفة . زهاء عام ٢١٠ هـ . وقد اكتسب المريد بعض الالهام ، أي الشعور اللاشخصي بأسرار العالم ، الذي من هذه الدنيا ادخله في الحياة الاخرى ، التي غبطتها ، كما

---

(٣) قضاعة تعلم اني الفتى
الذي ادخرت لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف
على أن كل كريم يمان

يرى القرامطة ، من النسق الذهني اللامادي . ومن هنا الكبرياء الخاصة لهؤلاء المنورين التي لاتردد بتشبيهها بالكبرياء التي استنكرها كافة النقاد في المتنبي ، واذا كان قد اثقلها ، بادىء الامر ، بالكبرياء الفطرية العربية ، واذا كانت هي كبرياء الفنان المتطرفة ، فانها تفصح في صميمها عن يقين لا شخصي ومذهبي ، هو يقين غنّوصي ، المعرفة المرّة المتعالية لمريد من مريدي « نسبية الاديان » التي هي الكلمة الاخيرة للقرمطية ، التي لم ينسها المتنبي ، كما سنرى مصداق ذلك تاليا .

والى جانب التظرفات الكلاسيكية (الاتهام بالسيمياء : خداع العامة بحيل بدوية يمانية : تسمح بتجنب المطر وترويض ناقة ، الخ) فان المطاعن التي طعن بها المتنبي تزيح الستار عن منتسب الى القرمطية : قال عن نفسه أول ما قال انه علوي ، اي القائم « الذي سيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » ـ ثم ادعى انه نبي مرسل معزز بقرآن جديد ، ويعني هذا ان المتنبي شأنه شأن جميع السينوية والسلمانية نادى بتبني كل مريد من قبل روح النبي (وادعى هذا لنفسه) ، وهذا يلغي في آن واحد الامتياز الموروث للعلويين والكرامة الخاصة للرسول « البشير النذير » بالوحي القرآني.

والواقع ان المتنبي رغم انه لم يخرج من من السجن (٣٢٧ هـ) إلاّ بعد ان امضى استتابة، ومن هنا احتراسه من المواضيع الدينية في كل انتاجه (لقد سكت حتى عن علي ، وهذا ما لامه عليه حماته الحمدانيون الشيعيون المحافظون المتحمسون ، على نقيض ابي فراس(٤) ، وتنم بعض أبياته هنا وهناك عن قرمطي قديم ، وتحت وطأة المغالاة الارادية للاشادة بمستضيفه الحالي ، نتبين افتقار ما يقوله الى الاحتشام لبعض القيم .

الاسلام :

إن كان مثلك كان أو هو كائن
فبرئت حينئذ من الاسلام

حواء :

لو لم تكن من ذا الورى اللذّ منك هو
عقمت بمولد نسلها حواء

موسى :

أو كان لج البحر مثل يمينه
ما انشق حتى جاز فيه موسى

عيسى :

وكأنما عيسى بن مريم ذكره
وكأن عازر شخصه المقبور

أو كان صادف رأس عازر سيفه
في يوم معركة لأعيا عيسى

المهدي :

فان لم يكن المهدي من بان هديه
فهذا وإلاّ فالهدى ذا فما المهدي؟

هذه الابيات تفضح مريدا قديما ، فالمسلم العادي يجهل اسم عازر ، ولكن القرامطة حفظوه ، ليجعلوه يلعب دورا (انظر كتاب التعليم الدرزي ـ ٨٧) . وفي ثلاثة مقاطع ، يتحدث المتنبي عن قرامطة البحرين . في احداها ، بخصوص مذبحة الحجاج ، التي ملأت العالم الاسلامي رعبا وفزعا ، وسنلاحظ اللهجة المعتدلة للومهم ، واستعمال الكلمات الدقيقة (اسم الشيخ لزعيمهم(٥) ، وكلمة النافلة التي تحل محل كلمة فريضة ، موصوفا وصفا دقيقا) ، والمقطع الآخر يمتدح شجاعتهم كما هو ظاهر ، والمقطع الثالث يتناول فائزهم ، وهو اكثر المقاطع اقتضابا . وان مفردات المتنبي رغم تسلسلها الكلاسيكي الجميل ، تتضمن بعض المصطلحات المألوفة لدى الاسماعيليين : تتضمن تعبيرين من تعابير اخوان الصفا (= قدس الله روحه ، الفلك الدوار) ، و (كلمة الثقلين = القرآن والعترة ، وليس الجنّة والناس) ولعل هناك ثلاثة اواربعة مصطلحات اخرى، ولم يوجه المفسرون تطلعاتهم الى هذه الجهة، حيث يوجد ما هو جديد يعثر عليه . وهكذا ، فان المتنبي حين يصرح انه لا ينبغي وضع الشمس (المؤنثة) تحت الهلال (المذكر) فانه ينوي ، في الحقيقة ، حسم المعركة القديمة بين شيعة الكوفة حول أولوية الميم (محمد = الشمس) او العين (علي = القمر) ، في علم التنجيم الشيعي، الشمس = محمداً ، القمر = علياً ، الزهراء = فاطمة ، والفرقدان = الحسن والحسين ، وذلك باتجاه ميميات القرامطة(٦) .

---

(٤) وعوتب على تركه مديح آل البيت ، سيما امير المؤمنين علي ، فقال :
وتركت مدحي للوصي تعمدا
اذ كان نورا مستطيلا شاملا
واذا استطال الشيء قام بنفسه
وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

(٥) شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم

(٦) وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وأخيرا فان البهلة أو اللعنة في مطلع قصيدته :

أيا خـــدد الله ورد الخـــدود
وقـــدّ قـــدود الحســـان القدود

يذكرنا باسم آلهي غريب ، لا يوجد إلاّ في الطلطنجية لغلاة الشيعة : « مخدد الخدود ـ ربما الاخدود » (مخطوطة باريس ٥١٨٨ ف ٩٤ ، وهذه الخطبة سابقة على عام ٣٠٠ هـ ، طالما ان الصولي قد اتهم الحلاج بانتحاله مقطعا آخر : « أنا مهلك عـاد وثمود » : تاريخ غريب ٩١) .

(٢)

الثقافة الحضرية في سورية الحمدانية

يقال ان المتنبي انجر الى الاوساط الحضرية السورية بفعل صداقاته البدوية (والقرمطية) ، فانغمر في مدن ظل الشيعيون لهم القدح المعلّى فيها حتى الحروب الصليبية ، كاللاذقية وانطاكية وحلب وطبرية . وحين خرج من السجن ، معاهدا نفسه على أن لا يثور مطلقا ، كان طبيعيا أن يوطد علاقاته بهؤلاء الشيعة المحافظين ، الذين كانت تنسجم أمانيهم المشروعة المشبعة بالافلاطونية مع التعويضات الدسمة وخدمة السلالة السنية للعباسيين ، وفضلا عن ذلك كان هؤلاء الادباء والامراء على جانب عظيم من الثقافة ، مشغوفين بالعلم الهليني ، وبصورة خاصة كانوا من عشاق المنطق (سيستقبل الفارابي لديهم خير استقبال) ، وعلى هذا فان ما يؤكد لنا بصورة حسنة على أن ضرورة الحياة ـ وليس سلوك سبيل التشبع العميق بالآراء ـ كانت علة اقامة المتنبي في هذه الاوساط الادبية منذ ٣٢٨ هـ (في مدينة طبرية) ، وعلى الاخص بعد عام ٣٣٧ هـ (في انطاكية وحلب ، وتابعتها معرة النعمان) ، ذلك لان افقه الفكري لم يتسع بصورة محسوسة ، وانه لم يتكيف قط . وفي الصراع الدائر بين النحو التقليدي والمناطقة على الطريقة الاغريقيـة ، ظل نحونا من مدرسة الكوفة . صحيح انه حاول ذكر اسم ابوقراط وجالينوس(٧) ، ووضع في مستهل إحدى قصائده بيتا ارثماطيقيا عجيبا للغاية :

أحـــاد في ســـداس في احـاد
ليلتنـا المنوطـــة بالتنـــادي

١ + ٦ = ٧

ولكن هذه المحاولات تثبت بوضوح ان القضية ليست سوى اتجاه ضعيف ، والحاتمي اشتط كل الاشتطاط حين حاول مقارنة كلمة بكلمة لاقامة الدليل على وجود الصلة بين أبيات المتنبي الحكمية والحكم المنسوبة الى ارسطوطاليس(٨) .

وان حكم المتنبي ليست من الفلسفة الهلينية في شيء : لم يرغب في تعلمها ببلاط الحمدانيين . وقلما تذوق رقي هذه الحياة المترفة وسعتها ، بما فيها من حسن ودمامة وخير وشـر . واذا كان استقلاله العبوس يأبى السجود للامير ، فانه لا يرى في الحرب الضروس ضد الامبراطورية البيزنطية إلاّ ملاحم وغزوات ومبارزات ، واذا كان يهمـل علماء البلاط ، فلن يحني هامته ابدا ، ولن يغـدو طفليا مدجنا ، بل سيقطع صلته بالامراء دون تردد، ويقتل نفسه نتيجة اهجية ، تماما كما كان يصنع الشاعر في الجاهلية . ومع ذلك ستكون لدينا نتائج نحصل عليها من الغربلة الشاملة لاسـماء الذين اهدى اليهم قصائده، لاننا بفضل امدروز Amedroz ومرگليـــوث Margliouth ومـــزيك Mzik وهيـورث دني Heyworth Dunne ، نملك الآن طبعات لشـذرات تاريخية تختص بتلك الفترة ، مع مسارد وفيرة بأسماء الاعلام . وسنجد ـ كما اعتقـد ـ ان كافة ممدوحي المتنبي تقريبا كانوا من الشيعة ، باستثناء قاض مالكي ، وكاتب غني عجيب ، معتزلي بعض الاعتزال ، واعني به هرون الاوارجي الذي حرر عام ٣٠٨ هـ البيـان الذي اطلق محاكمة الحلاج من عقالها نهائيا ، ولا نعثـر على أي اشعري او أي حنبلي (لم يكن لهم آنذاك شأن يذكر) .

وفي البيئة ذاتها سيحيا المتنبي خارج سورية، وفي القاهرة يجد ـ الى جانب كافور ـ ابن الفرات (القرمطي سرا) ، وفي العراق يلفي الوزير المهلبي وفي فارس يلقى خلال سنتيه الاخيرتين (٣٥٣ ـ ٣٥٤ هـ) وزراء بويهيين آخرين . ولنلاحظ انه اذا كان قد زار في شمال شيراز شعب بوان الرائع الذي لمحته في الافق عام ١٩٣٠ أثناء رحيلي الى البيضاء ، فقد أروه صوب الجنوب « شعب أشجار اللوز ، دشت الارزن ، المشهور لدى الشيعة بأنه موطن سلمان الفارسي .

---

(٧) كانـــه مـن علمـــه بالمقتـــل
علـم بقـراط فصـاد الاكحـل

يمـوت راعي الضـأن في جهـله
ميتـة جالينوســـ في طبـــه

(٨) الرسالة الحاتمية ، لابن مظفر، طبعة الجوائب، ١٣٠٢هـ.

ولنعد الى فن المتنبي الشعري من وجهة النظر الثقافية . ان الوضوح الغريب الذي تتمتع به لديه الصور يلوح لي كذلك انه من فاعلية أسلافه القرامطة . فهذا شاعر البلاط المزعوم يرفض ان يتغنى بالخمرة، ولا يصف الجمال الحسي للاجسام، ولا يدع لنفسه مجال الاختيار ، لتوبلة موائد المتهتكين ، بسلوك مدح الزهد الذي يعوزه الاخلاص مع التغزل بالمذكر المزعومة افلاطونيته . صحيح انه تبرئة لذمته يلجأ الى تنويع مبالغاته في المديح ، ولكن ما يمنحه قبل كل شيء لسامعيه ، انما هو مشهد تفكيره الخاص : التفكير الخالص ، في حالة الهياج الوحشي ضد الوضع البشري ، بل حتى ضد ثقل المادة البسيط ، ضد ما سماه اخوان الصفا « الحكام الخمسة » الذي يضم : السماء التي جعلت الليل والنهار خلفة ، والفصول ، الطبيعية التي تحملنا مشقة الحر والبرد والشوق والحسرة ، الشرع الذي يخضع لحكم الطقوس ، أو يؤدي الى العقوبات الجزائية ، الدولة ذات المرافق والتسخيرات المهنية ، ضرورة الطعام والشراب واللباس والسكن والعمل بالآلات :

نحن بنو الموت فما بالنا
نعاف ما لابدّ من شربه

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم

فحب الجبان النفس اورده التقى
وحب الشجاع النفس اورده الحربا

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

حتام نحن نساري النجم في الظلم
وما سراه على خف ولا قدم

بم التعلل لا اهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أجد الحزن فيك حفظا وعقلا
وأراه في الخلق ذعرا وجهلا

ولا يتحدث عن الحب إلاّ كقيد مفروض ، فهو مرض الفكر الذي يجهد نفسه في سبر غور آليته ليقنع نفسه ببطلانه :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم
عرضا نظرت وخلت اني أسلم

أو كما يقول الحلاج :

الحب مادام مكتوماً على خطر
وغاية الامن فيه غاية الحذر
واطيب الحب ما نم الحديث به
كالنار لا تأت نفعا وهي في الحجر

من بعد ما حضر السجان واجتمع الاعوان واختط اسمي صاحب الخبر

أرجو لنفسي براء من محبتكم
اذا تبرأت من سمعي ومن بصري

والمتنبي يخلع اسما لفكره على هذا الموقف المرير المكافح : انها الفتوة :

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

وهنا ايضا نجد انفسنا حيال كلمة ذات مذاق شيعي متطرف . ففي القرن الثاني ، الفتى هو المتآمر الشيعي ، الذي نذر نفسه للقتل ، فهو يتخذ موقفا ذا اناقة استفزازية . والفتوة لدى المتنبي هي شرف الرجل الذي يرى ان فكره ، بكل أهوائه ، هو الشيء الوحيد المعتبر ، وخطر الموت تجاهه لا قيمة له ، وكذلك القرامطة ، الذين قال عنهم مؤرخ الهرطقة المعاصر أبو الحسين محمد بن احمد بن عبدالرحمن الملطي في كتابه « التنبيه والرد على أهل البدع والاهواء » : وهم في الحرب لا يدبرون حتى يقتلوا ، ويقولون ان حياة بعد القتل أو الموت افضل ، لانا نخلص أرواحنا من قذر الابدان وشهواتها ونلحق بالنور » .

(٣)

الخلاصة

ان الملاحظات السالفة نجمت عن الخواطر التي اوحتها اليّ شيئا فشيئا قصائده المعروفة يقينا بل المعروفة في كافة ارجاء العالم العربي : التي أشعرني بها منذ سنوات عديدة صديقي الحاج علي الآلوسي ، الذي نحن مدينون له بصورة مباشرة

بنشر كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للجرجاني .. نعم أشعر في أثناء حملة ربيعية في بادية السماوة بديمومتها الابدية .

واني لا ازعم مطلقا إرادة تذوق الافتنان البارع في شعر المتنبي ، ولكني اتبين أن تنقيبه عن الكلمةالنادرة غير مدين به لحرص مبتذل على القافية السرية ، ولكنه يهدف الى النسيج الباطني للبيت: وفي احدى القصائد ، لم اتوقف الاّ عند بعض الابيات المتفردة ، بغية التفكير والتأمل ، وفي مطالع القصائد بصورة خاصة ، وهي ضربات عزاف ماهر، ترسم يد الاستاذ على الدوام نفس حركات الفكر البتارة . والمتنبي يهاجمنا بدفعه التوازي السامي القديم الى حد الاقتضاب والبلاغة ، وهذا الامر يحمل كذلك علامة على اصوله القرمطية ، طابع التبريز المرير ، المستعلي الجارح ـ بارتطام الالفاظ، هـذا الارتطام الذي بفضل تقنية متسلطة متماسكة يحدث اصطداما بين فكرين متناقضين . انها افكار اكثر من كونها صورا ، واحيانا من الشطر الاول :

اغالب فيك الشوق والشوقأغلب
واعجبمن ذا الهجر والوصلأعجب

نرى عظما بالبين والصـد اعظم
ونتهم الواشـين والدمع منهـم

وأبعـد بعـدنا بعـد التداني
وأقرب قربنـا قـرب البعـاد

لعينيك ما يلقى الفـؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وختاما ، قصيدة « لك يا منازل » الرائعة :

لك يا منازل في القلـوب منازل
أقفرت انت وهنّ منـك أواهل
يعلمن ذاك ومـا علمـت وانمـا
أولا كمـا يبكي عليـه العـاقل

لقد أكد پاسكال في احدى خواطره الفكرة المقلوبة أو المعكوسة : « لا يكون الانسان شقيا بدون شعور، البيت الخراب لا يكونه ، الانسان وحـده هـو البائس » .

التناقض بين پاسـكال والمتنبي آت من أن پاسكال المسيحي يؤمن بحضور الاصطفاء الآلهي ، المخصص لبعض الكائنات التي زارتها رحمة الله وتجلت فيها ، في حين ان المتنبي المسلم يأبى ايثار أي مخلوق بامتياز استثنائي ، والاكثر من ذلك ، انه كان قرمطيا ، ففي ان الخلق ليس سوى غشاء وهمي يحجب بقناعه نفسه الفكر الصافي ، ومع ذلك فبقية من انسانيـة تجعله يبكي أمام هـذه الاحجار : على غياب كل فكر عنها ، على هذا النقص، على هذا العدم ، الذي هـو أسوأ من اللعنة .

المتنبّي وأسباب مجده

الأهمّية التاريخيّة لأشعاره

إن اسم المتنبي اسم رنان حتى بالنسبة لاولئك الذين يجهلون كل شيء عن شعره . لقد اشتهر بوصفه اعظم شاعر عربي ، وظهر بهذا الشكل لجمهرة الرأي العام في الشرق . وقد ثلبه عدد لا بأس به من النقاد العرب وتجاهله معظم المستشرقين الاوربيين ، فمجده اذن تام ! وفي منتصف الطريق بين نقاد فعلت فعلها في نفوسهم غيرتهم المهنية ، واعجاب الذين حالت اسباب اجنبية دون تنكبهم جادة الاعتدال . بودي ان اصدر هنا حكما محايدا . ولكن الشعر هو احدى صيغ الفن التي تعكس بصورة اوضح ما تكون الصورة ، مزاج شعب من الشعوب ؟ ولاجل تذوق الشعر لا يكفي مطلقا مجهود فكري ، مهما كان خالصا مخلصا : يجب تكييف الشعور . واخشى ألا يتحقق هذا الامر هنا . اذن فسأصرف النظر عن ابداء الانطباع الشخصي ، الذي يحتمل ان يكون زائفا ، بل سأضع نفسي بسذاجة امام مجد الشاعر ، مجهدا اياها على فهمه وتفسيره . لعلنا لا نلحظ للوهلة الاولى الاسباب التي ادت الى وضع المتنبي في اعلى درجات السلم ، في طبقة ادبية مرتفعة كل الارتفاع عن طبقة بعض الشعراء الذين سبقوه ، امثال ابي نواس والبحتري . ولا يأخذنا العجب من رؤية الجمهور يشيح بوجهه عن الساخر اللاذع ابي العلاء المعري ، ولكننا نعتاد بمشقة على حقيقة ان وجهي ابي تمام وابي فراس ، وهما في زاوية من اللوحة لا يكاد يقوى على حجبهما ظل المتنبي الهائل .

لا يراد بهذا القول على الاطلاق نعت الجمهور بكثافة الاحساس تجاه جمال المتنبي الاصيل ، بل ان الجمهور يعجبه من المتنبي السهولة اللفظية الرائعة للصور التي تذكّر احيانا بجعجعات فيكتور هوگو ، يعجبه علمه اللغوي العميق ، تستهويه الخصوبة النبيلة في قول الحكم ، تسحره السهولة الاخاذة في تطويع عدد الكلمات وايقاعات المقاطع لسلطان الفكر ، تخلبه براعته المفرطة في توزيع عناصر القطعة توزيعا حاذقا ، تذهله مهارة لا حدود لها في تنويع المديح للعظماء ، وهي المادة الاساسية في شعره ، واخيرا تروعه اهليته للعظمة ، ونَفَسُه نَفَس الشاعر الحق . — ولكن اذا كانت هذه الصفات هي صفات المتنبي صدقا . فاننا نجدها كذلك لدى شعراء آخرين ، بنسبة يحس القاريء الاوربي تجاهها بعجزه عن تقديرها حق قدرها ، على اننا اذا اعترفنا بالعثور على هذه الصفات لدى شعراء آخرين ، يعتبرون نجوما صغرى ، فاننا نخشى ان نسيء اليهم بابعاد الشمس عن رؤوسهم كل الإبعاد .

* *

من المناسب اذن ان نعترف بمشروعية المكانة التي طالب بها المتنبي لنفسه في اعلى سماء شعرية ، كما حفظ لأميره هذه المنزلة في حقل السياسة ، وان نستكشف في شخصه مزايا غريبة عجيبة ، يفتقر اليها منافسوه ... نجد هذه المزايا ، كما يبدو ، في شخصية المتنبي المتوثبة وفي المظاهر المنوعة التي فرضتها عليه الظروف . — وقد اتصل المتنبي ، العربي الاصل والحضري المثقف ، بالصحراء في فقرات عديدة من حياته وعاش حياتها . تلك الاتصالات التي كان يعتبرها ادباء العصور الكلاسيكية ضرورية للشاعر وهو في مرحلة التكوين ، كما هي ضرورية للنحوي الذي ينشد الكمال . فالتحق المتنبي بهذه الوسيلة بركب أقدم الشعراء العرب

وعثر ، يحدوه الاخلاص على بعض انطباعاتهم البدوية . ـ ومشى وراء الامير الحمداني الى القتال ضد الكافر البيزنطي وضد البدو المتمردين ، واحب ان يرسم نفسه ، اثناء غليان المعركة ، طاعنا برمحه وسيفه العدو المفزوع ، وقد امعن في هذا الموضوع بزهو يذكرنا بشجاعة العرب القدماء وافتخارهم في حروبهم . انه عنترة آخر ، بل النموذج الفريد للشاعر المحارب . وان حياته البدوية المجازفة تذكرنا بشاعر جزيرة العرب هذا . على ان ميوله الشيعية ودوره الغامض بعض الغموض في ادعائه النبوة ، لتضفي على سيرته بعض اللبس والابهام . وموته بالذات هو الخاتمة المنتظرة لحياة رومانتيكية ... المتنبي يذكرنا بامريء القيس .

اصبح المتنبي اذن وكأنه المهدي في الشعر العربي ، يترقبه الرأي العام ليسدل ستار النسيان على شعراء الشعوبية ، وليبعث نموذج الشاعر العربي للعصر الذهبي ، الذي اخذ يزداد توشحه بالمعنى الصوفي والعنصري عبر التاريخ كلما امحى رسمه في الماضي وطورت الظروف معنى كلمة «عربي»

إن في اعجاب ادباء اللغة العربية بالشعر القديم نصيبا من الاحترام الموروث ، وان طابع هذا الشعر المفتعل شيئا لا يقل من اهميته ولا يقدح في صدقه . لقد عرفنا بأية حرارة دافعت العناصر المحافظة في الاسلام ، المسماة بالفقهاء ، عن الشعر المنعوت بالجاهلي ، اذ لاح ان القيمة الدينية للكتاب المقدس (القرآن) ذات علاقة بصحة بعض القطع الشعرية ، الممثلة لحالة اجتماعية اخذ الرسول على عاتقه ازالتها . وعلى هذا ، فمن البديهي ان يعسر فهم الشعر القديم على القارىء الوسط الذي يتخرج في المدارس . وان الاعجاب به له مكانته ... ـ ولأجل ان يغدو هذا الاعجاب سليما تحتم وجود وسيط شعور ولغة بين الشعراء القدامى والعرب المعاصرين . ويبدو واضحا ان المتنبي حقق ذلك بصورة رائعة : فهو « عصري » كفاية وذو لغة شافية الوضوح بحيث لا تعرض القارىء الا الى الصعوبات المألوفة في المبالغات واللعب بالصور ، ولغته كذلك متقنة مترفة انيقة تصلح لارضاء الذوق العربي في البحث عن الصيغة ، وهو على ثقافة يستطيع معها ترصيع اشعاره بالامثال حيث حكمه الامم تصاغ في عبارات جميلة . وفي زماننا هذا إذ يعاني الاسلوب العربي واللغة العربية تحولا عميقا ، نرى الشعر ، الذي هو أشد محافظة من النثر ، لا يكاد يمتلك جرأة على هجر السبل المطروقة الموروثة .

ومع هذا فالاعجاب ليس عاما : لقد ذكرنا ذلك في البداية ، ولكن يلوح ان عيوب الشاعر نفسها يمكن ان تصبح مزايا بالنسبة للقارىء الحديث . إن فصل التقصيرات او المبالغات لدى المتنبي قد كتب كتابه ممتازة بقلم ريجي بلاشير ، فترة طبع بحثي هذا. ومن جميع الجرائر التي آخذ النقاد الشرقيون المتنبي عليها ، ثمة جريرة ، نرى من المناسب ان نخصها هنا ببعض الكلمات ، الا وهي : السرقة الادبية .

* * *

إن اقامة الحجة على ان كاتبا مشهورا محروم من الاصالة ، وأنه سرق افكاره وصوره واوزانه من قدماء الكتاب المعروفين اقل منه ، صفق لها بعض النقاد وزمروا بفظاظة ، لايلامهم ذكرى المتنبي، كأيلام امثاله في الغرب والشرق . وليس من الكياسة ان نحكم هنا على ما هو استعارة مشروعة ومحاكاة خصبة تجاه ما هو محض سرقة او اقتباس أبله ، ولكن الاهمية كامنة في ان نورد باختصار مفهوم الروسم (الكليشة) في الشعر العربي بصورة عامة ، واستعماله الباهر لدى المتنبي خاصة .

رغم تنوع مظاهر الشعر العربي عبر التاريخ ، فانه قد احتفظ بمذاق خاص حيل الصيغ . فكل بيت شعر يزعم انه يعبر بصورة منفردة عن صورة، عن انطباع ، عن فكرة . وان مظاهر الصحراء ومشاعر البدوي صيغت في هذا الشعر صياغة المسكوكات والاوسمة . فقصائد المديح والرثاء والهجاء لها طابع سحري في هذا الشعر المندمج كل الاندماج في الحياة الاجتماعية ، ولم يتخلف عن الاعراب عنها بصيغ موزونة مقفاة واثناء الاستعمال فرضت نفسها تعابير حلوة مدهشة للغاية ، وتكررت واخذت هيئة تعميمية تنميقية ، ففي الالياذة والاوذيسة المختلفتين كل الاختلاف عن الشعر العربي القديم ، ولاسيما بفعل استمرارية الايحاء وبالدور الذي لعبته فيهما الصراعات وخطب الآلهة والناس ، نقع على الصور المقولبة نفسها ؛ وعلى ذات الكلمات الحكيمة والعامة ذاتها . ـ وان آداب الهند ، القريبة كل القرب من شبه الجزيرة العربية باتصالاتها ، انما هي اساطير وحكم وامثال آخذ بعضها بحجز بعض . وما دمنا دائرين في فلك التراث العربي ، فبوسعنا ان نقول ان الشعر العربي ورث حكمة سليمان وحكمة لقمان .

هذه الصور وهذه الافكار ليست مما لا يحصى له عد ، وان الشعر القديم في فرضه على الشعوب الناطقة بالعربية صيغة التعبيرية ، قد ثبت لها بعض

الصور وبعض مجاميع الكلمات وبعض الاوزان ، التي غدت عناصر منتظرة وضرورية للاحاسيس الشعرية التي تناظرها . قال ذلك آخرون ، وافضل مما اقول : يوجد في الفن الاسلامي اتجاه عام نحو النمنمة ، وجهد نحو هندسة الاحاسيس والافكار والصيغ ، وهذا كله الى بعض النماذج البالغة البساطة . المتنامية دون كلل ، المتحولة الى تنسيقات ايقاعية . وعلى هذه الصورة يلتف النغم على البيت ، التي تفرض اوزانه المنوعة على الكلمات قيمة ايقاعية تختلف عن القيمة التي للكلمات في اللغة الدارجة ، وتثبت الى الابد الصور في ذواكر هي بشكل طبيعي امينة . والمتنبي ببعثه دم الشباب في رواسم الشعر العربي بصورة ماهرة ، ارضى غريزتين متعارضتين لدى القارىء ، غريزة احترام التراث وغريزة حب الجديد . ويمكن ان نقع في موضع آخر في لازمات الاغاني وفي اللحن المطروق الذي يستقبل كلمات جديدة ، وفي نواحات المشاهد المحزنة، وفي المرددات الفاگنرية، على مظاهر مماثلة للذوق العام .

لقد كان المتنبي بالغ الحفاوة بالقالب القديم للشعر الشريف للقصيدة . وللحصول بأنفة على كرم عظيم من العظماء ، كان من المناسب آنئذ استهلال القصيدة بالتحسر على المنزل المهجور ، ومدح الحبيبة (النسيب او التشبيب) ، ثم ترد حكاية مراحل الصحراء الطويلة ، والثناء على مطية الشاعر ، ومسلسلات الوصف ، واخيرا مدح الشخص المرجو نواله .ـ ونحن نعلم كيف جعلت الظروف يوما هذه المواضيع مضحكة بالنسبة لاشخاص لا يهتمون من قريب او من بعيد بالجمال او بالاسف على الصحراء . ومن الملائم تحوير القصيدة ، وفي الوقت نفسه احترام الخطوط الكبرى وتطويعها بصورة لطيفة لتحمل المديح . والعكبري في شرحه لديوان المتنبي حملنا على ملاحظة براعة الشاعر في صب مديح رائع لعلي بن محمد بن سيار بن مكرم في قالب قديم ، ويقص علينا قصة الوالي الذي لم يرض من احد الشعراء تذرعه بمدحه ليشيد بتفوق ذاته . وهذه النادرة يرويها ابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » على الوجه التالي :

... فقد كان بعض الرجاز اتى نصر بن سيار والي خراسان لبني امية فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة ابيات فقال نصر : « والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك ، فان اردت مديحي فاقتصد في النسيب » . فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدار لأم الغمر
دع ذا وحبِّر مدحةً في نصر

فقال نصر : « لاذلك ولا هذا ، ولكن بين الأمرين » .

هذا الفن في توزيع المديح بحكمة ، بلغ به المتنبي درجة الكمال ، على الاقل في اشعار الفترة الحمدانية ، التي تؤلف جوهر شعره عددا وقيمة . وانها لتحتفظ ، على العموم ، بشاهد بالغ التواضع، في التوطئة الغزلية ، اما البقية فتلتفت الى المديح . ونجد فيها وقائع كثيرة من حياة الصحراء وناقة الشاعر والخيام السمراء والسيوف اللامعة والرماح الطويلة ، ولكنها موجهة الى العدو البيزنطي الهارب، ومتغنية بمجد الامير المؤثل ، والشاعر غير غافل عن مدح نفسه ذاتها ، ولكن هذا المدح لا يجدي الا في تفخيم ولي النعمة الذي يمدح مكارمه اروع المديح ، فمجداهما متضامنان ويساند احدهما الآخر في الصعود . ـ وفي جو من الواقعية والاخلاص، احتل تفهاء الشعر العربي في ديوان المتنبي المكانة التي احتفظ لهم بها السامعون في ذواكرهم .

ونحن حين نقرأ شراح ديوان المتنبي ، الذين لا يدعون بيتا من الابيات ذا طابع خاص يمر إلا وارفقوه بتقريب حاذق من لقطات الشعراء السابقين، يحصل لدينا الانطباع بانه حينئذ نفد كنز الشعر العربي . ولهذا يبدو ان المتنبي جاء تماما في الوقت المناسب لاجل اعادة نقش الاوسمة بشكلها النهائي .

اذن فمن الغفلة ، بل من الحماقة ، ان نلومه على خطراته فنجعل منها سرقات غير شريفة . ومن المناسب ، دون ادنى شك ، ان ينهض نقد دقيق ، في مجال طبع ديوان المتنبي ، بالتقريبات المفروضة بين اشعاره واشعار زملائه ، بل حتى اشعار من جاءوا بعده . واذا كان لشرح من هذا القبيل قيمة في مجال تربية الذوق وكذلك في مجال التاريخ الادبي، فيبدو أن كتبا ضخمة عن سرقات المتنبي هي مشروع بالغ المسكنة ـ يجلعنا نفكر في مشروع قاديوس : « الذي يرسل اليك هوراس وفرجيل وتيرانس وكاتول ، لترى فيها مؤشرة كافة المواضع التي سرقها » .

وفي نطاق القصيدة التقليدية ، التي مارسها بمرونة عظيمة ، ردد المتنبي على سمع اللغة العربية مرة اخرى اشياء قديمة مقبولة ، استقبلت بحفاوة، ولكنها على العموم ليست ولم تكن في عصره الا ابتذالات وتفاهات : ولعل النقد يستطيع التوقف بجدوى هناك .

* * *

في فترة حياة المتنبي العظمى ، في الفترة التي كان خلالها شاعر سيف‌الدولة ، غذى قصيدة الافكار والوقائع التي ضمنت له قراء ، في الغرب على الاقل ، الى درجة اهتمام الغربيين بتاريخ اتصال الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية في العصر الوسيط . لقد كان المتنبي المؤرخ الرسمي للامير الحمداني ، واننا حين نقرأه يطير بنا الفكر احيانا الى لويس الرابع عشر والى عبور الراين ، فقد صحب الشاعر سيده في جميع غزواته ، وليس ثمة داع يدعونا الى الاعتقاد بان المتنبي حين سرد الوقائع غرق في المبالغات ، وجاوز كل واقع في موقفه الحربي ، ان هذه الحقيقة تمنح ابياته ، على كل حال ، رنين طبول الحرب التي تواكب نغماتها احيانا ابواق كورني .

بالاضافة الى ذلك يحلو لنا ان نوازن بين شعر المتنبي وشعر كورني العظيم : الرونق اللفظي نفسه في الاحتفال بالعواطف الشماء ، ذوق البيت الوسام (المسكوك سكا حسنا) حيث تنقش حكمه؛ حب مقابلة الفكرة بنقيضها ، والتلاعب النبيل بالكلمات ، التحذلق الذي يتجاوز احيانا حدود المعقول . واذا ابعدنا اكثر قلنا اننا واجدون اصولا عربية ذات تأثير اسباني عملت عملها في الشاعر الفرنسي في مستهل شاعريته ، وسنقذف اجداده النورمانيين لغزو صقلية ، حيث سيتآخون مع مواطني المتنبي الذين سيكون منهم البربر . سيكون ذلك لعبا ادبيا خالصا ، ملذا للغاية لكونه طائرا في الهواء ، لا يحسب اي حساب لا للزمان ولا للمكان ولا للحيوان والطبيعتين المتنافرتين للرجلين .

المديح لدى المتنبي ، شاعر البلاط ، هو الشكل المألوف لشعره ، ونحن نشعر ببعض الحرج من مبالغاته ، ونتصور ان الشعراء لم يغلوا هذا الغلو في قصائدهم على عهد عظام الخلفاء العباسيين . ولكننا نتذكر الملك الشمس ، لويس الرابع عشر وقصائد المديح التي كيلت له وتملقات موليير نفسه ومداهناته ، وتزلفات راسين . وفضلا عن ذلك ، فتحت سماء صحراء سورية اللاهبة تتقسى البشرة: ينبغي لك قرصة شديدة لكي تحس . واخيرا ، هل نحن على يقين تام بان لا وجود في هذه الجمل الجميلة ، كما في بعض كلمات جنوبنا ، لبعض المماحكة ، وهي موافقة اجماعية تامة على الممارسة الاعتيادية للمبالغة ؟

كان المديح اثناء فترة المتنبي الحمدانية العظيمة تؤيده الوقائع بصورة شريفة : شجاعة سيف‌الدولة ، مواهبه العسكرية ، اريحيته ، انتصاراته على العدو البيزنطي وعلى البدو المتمردين، اخفاقاته التي هي اجمل من انتصاراته . ـ مدح الشاعر الساذج لنفسه ، ثناؤه على تفوقه المزدوج كشاعر وكمحارب ، ونكرر هنا ان هذا الازدواج اعلى قيمة من الاماديح التي صبها بسخاء على رأس سيده وصديقه .

* * *

وايا كانت الزاوية التي ننظر منها الى المتنبي ، فاننا نعود فنتبين في شخصه العروبة . ولكننا لن نظل مطلقا في كبد الحقيقة اذا عزوناها بادىء الامر الى احترامه للقصيدة الجاهلية ، الملطفة بالتكييف لذوق العصر : انها بالاحرى من عمل الشعراء العرب ، اسلافه المباشرين : وهو لم يصنع اكثر من تجويدها واضفاء الرونق والبهاء عليها .

إن المتنبي هو الممثل الاعظم للشعر العربي الصميم ، في خريف معركة الشعوبية . وفي زمنه سلب التحكم السياسي للبويهيين من العرب اواخر حقائق السلطة في بغداد . وسنعيد القول ان البيئة الحمدانية هي عربية خالصة ، مع ابي فراس وابي الفرج الاصفهاني ، امين محفوظات الامجاد الادبية لشبه الجزيرة العربية القديمة .

إن الاعتزاز بالعروبة هو العنصر السائد في ابيات المتنبي :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد
فكيف اذا كانت نزارية عربا
وخيلا تغتذي ريح الموامي
ويكفيها من الماء السراب

وإن كتاب بلاشير البديع يغنينا اليوم عن الاشارة الى هذا المظهر القومي في اشعار المتنبي . ـ انه يندمج بعزته الشخصية ، التي من السذاجة قليلا التحدث عنها بالحاح :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعوذ الجاني وغوث الطريد
إن أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافي
وسماع العدى وغيظ الحسود

هذه العزة للشاعر ليست احيانا الا روسما ، تتخذ كذلك شكل خيلاء :

ما ابعد العيب والنقصان عن شرفي
انا الثريا وذان الشيب والهرم

واليكم هذا البيت الذي تقتبسه الرواية من مقطوعة شهيرة لتجعله يلعب الدور الحاسم في قصة موت الشاعر المفجع .

الخيـل والليـل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وكبرياء الشاعر هذه تتحالف بروعة مع مجد سيده سيف الدولة ، ولا احد يعود بعد ذلك يدري ايهما احب الى نفس الشاعر في هذا الخليط :

واكبـر تيهـي انـني بك واثـق
واكثـر مـالي أنـني لـك آمـل
رميت عـداه بالقـوافي وفضـله
وهـن الغـوازي السـالمات القواتل
أجزني اذا انشـدت شـعرا فانما
بشـعري أتـاك المـادحون مرددا
وصـول الى المستصـعبات بخيلـه
فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا
تمـر بك الابطـال كلمى هزيمـة
ووجهـك وضـاح وثغرك باسـم
تجـاوزت مقـدار الشجاعة والنهى
الى قـول قـوم انت بالغيب عالم
نهبـت من الاعمـار مالو حويتـه
لهنئـت الدنيـا بانـك خـالد

كل هذا جاء طبقا لأجمل اتباع للشعر العربي الكلاسيكي . وحتى ذوق اللعب بالكلمات هو ايضا اتباعي . واسم سيف الدولة نفسه تورية حربية خطرة :

فيا عجبـا من دائل انت سـيفه
أمـا يتوقى رشـفرتي مـا تقلـدا

والحكم التي ضربها المتنبي شهيرة ، فكتب المنتخبات الادبية والموسـوعات العربيـة تترددها وتستشهد بهـا . والقاضي الاديب ابو الوليد بن رشـد القرطبي ، « كان يحفظ عن ظهر قلب ابيات حبيب والمتنبي ، وكان يستشهد بها في مجالس تدريسه » . ودونكم اثنين منهـا :

يموت راعـي الضـأن في جهلـه
ميتـة جالينوسـن في طبـه
فمسـاهم وبسـطهم حرير"
وصـبحهم وبسـطهم تـراب"

ومع ذلك يبدو من الصـعوبة التحـدث ، بصدد هذه العبارة المسبوكة جيدا ، عن فلسفة للمتنبي : انها لكلمة ضخمة ، للتعبير عن الاستعمال الموفق الذي نجحت فيه فخامة لفظية لشاعر كبير حين استعانت بحكمة الامم . ولو اردنا استكشاف ما يضايق اعجاب القارىء الفرنسي ، فلن تكون حتما الا لعبانيات اللفظية لدى المتنبي مصدر صدمة لـه . فتجاه البيت المشهور الذي يعج بالاوامر ، يبتسم الفرنسي ابتسامة استئناس تصـحبها مسليات مماثلة لدى فيكتور هوگو أو تيودور بانفيل ولكن ما يقلق الفرنسي المفهوم الغريب للتـوازن والرصانة ، الذي حتى الرومانسية الفرنسية لم تعتـد عليه وتألفه .

قال المتنبي في رثاء اخت عضد الدولة ، التي توفيت في بغـداد :

لعلهـا تحسـب ان الـذي
ليس لديـه ليسـن من حزبـه
وان مـن بغـداد دار لـه
ليسـن مقيما في ذرى عضـبه
وان جـد المـرء اوطانـه
من ليس منهـا ليسـن من صـلبه
اخـاف ان تفطـن اعـداؤه
فيجفلـوا خـوفا الى قربـه

كانت الفكرة المفتعلة جميلة حقا ، ولشـدة تحميلهـا اكثر مما تحتمل اصبحت محض تمحل . لقد فتح المتنبي الباب على مصراعيه امام ماسكاريل Mascarille ولكننا نكرر ان هـذه اللطافات عرفية عذبة الوقع على قلوب الادباء العرب . وفضلا عن ذلك فان ابيات المتنبي ليست للامير فقـط مسرة لأذنيه وعقله وروحه ، وانما هي متعة تدغدغ غروره . انها بياناته عن النصر ، انها « بلاغاته » حيث الاخفاقات تصبح نجاحات ، انها صحافته الرسمية التي تبعث الحماس وتؤجج ناره دائما . فالامير لا يخطب في شعبه مطلقا من شرفة قصره . وانما شعراؤه هم الذين يتحدثون باسمه ، فيوطدون مجده وقوته الراهنة ، كما ينصون على شهرته في أذهان أعقابه . وكل مقطوعة تعاني المحنة الاولى او الامتحان الاول امام القصر ، الذي له قراءتها الاولى : فتحوز على الاعجاب او على الاستنكار أو على النقد ، والامير نفسه يتباهى بلغته العالية ، فيناقش وضع الاشطر في بيتي قطعة حول بناء الحدث ، فينتفض الشاعر ويشرح شرح عالم لماذا يعتبر قصيدته هي الفضلى ، ولو سمعناه لعرفنا انه فكر كنحوي تفكيرا طـويلا في هذين البيتين ، فتحول الشاعر المطبوع الى متحذلق ، ذلك لانه متمرس بهذا العلم ولذلك سمح لنفسه بالخوض فيـه .

ومن ألقصر تنبعث الاشعار وتنتشر وتأخذ في الهواء الطلق الحر حياة الدعاية من : اشعار حربية الى اشعار ساخرة من العدو ناحتة في أثلته ، الى حكم بديعة عامة ، تمزج بين مجد الامير وشهرة الشاعر ، وتصل الى خيام البدو ذاتها .

* * *

ولكن هذه الاسباب الادبية والتاريخية لفهم مجد المتنبي لا تكفي لتفسير هذا المجد من كل جوانبه، ان له دون ريب أسبابا على الصعيد اللغوي ، لا تتيسر لنا معرفتها بيسر وسهولة ، وانها لا توقظ فينا على الاطلاق ، نحن الاجانب ، شعورا قوميا وعميقا ، وعلى هذا فليس ثمة أباس من دراسات علم الاساليب العربية ، في الشرق كما في الغرب . ولذلك فأنا أتردد في ركوب متن المخاطرة هنا ببعض الملاحظات من هذا النسق . لا نستطيع التسليم بأن المتنبي أوغل عن طريق المصادفة والاتفاق في استخدام السجع المرصع استخداما رائعا وبشكل متقن . لقد ذكرنا آنفا دور السجع في صياغة العبارات السحرية والحكم والامثال القديمة في شبه الجزيرة العربية ، والقرآن ذاته هيأ لنا نماذج منه. واذ تنامى هذا السجع في الخطب الرسمية والجدية، فانه أصبح ، في القرن الثاني ، الطريقة المألوفة للتعبير في النثر «الفنان» «الفني ؟» . ومن المناسب ولا ريب أن ننعى على هذه الطريقة أنها أنتجت أعمالا تعد روائع وآيات يحل فيها الشكل محل الفكر الغائب، ولكن من المناسب كذلك ان نعترف بالاشراق اللفظي الذي حققته . لقد شعر الشعراء بهذه الحالة منذ عهد عهيد ، ونجد استعمال السجع المرصع لدى شعراء قدماء ، وقد استخدمه « المحدثون » أحيانا ، كالبحتري مثلا ، ولكن في أي موضع آخر لم يبد مكررا ورائعا روعته لدى المتنبي ونصادف بكل نواحي ديوانه أبياتا ، شطرا كل بيت يجمعان على الصعيد نفسه الفاظا من الايقاع نفسه أو الوزن وعلى العموم نجد الصيغة ذاتها والقيمة ذاتها للتراكيب المنطقية وهذه الابيات تعبر عادة عن الطباق الذي يكتسب رنينا بين يدي المتنبي الساحر . بل نرى كذلك ان استخدام السجع منح أبياته رنينا مطبوعا وحياة مترفة تفتقدها الاشعار الكلاسيكية في أوزانها .

والواقع أننا على علم بأن الابيات العربية الكلاسيكية مؤلفة طبقا لعدد معين من الاوزان ذات الايقاعات المختلفة حيث النقاط الايقاعية الضرب والتهيؤ ، لا يقومان بالضرورة على المقاطع التي هي منبورة في اللغة الدارجة . وبكلمة واحدة أن ايقاع بيت عربي من الابيات هو في كل أجزائه غريب عن ايقاع اللغة الدارجة . — ولا ريب أن قضية النبر هي أغمض القضايا اللغوية العربية ، فليس لديها اي مأثور تقتفيه ، ودراسة اللهجات المعاصرة تهبنا نتائج لا نستطيع الركون اليها بالاضافة الى تضاربها، اذن فنحن لا نقوم إلاّ بفرضيات على صعيد يعطينا انطباعا حادا لانه لا يعمل أكثر من تقوية الحركات بالقيمة الانفعالية التأثيرية التي يخص بها بعض كلمات الجملة أو ما يناقض فحواها ، والوضع الذي تهيئه للتحريك يؤيد الفرضيات التي قال بها النحاة الاوربيون بصورة عامة بخصوص مكانتها وقيمتها في اللغة الدارجة فالمتنبي حين أدرج في اشعاره شكلا للتعبير يحفظ ، بسعة كافية ، رنين اللغة الدارجة ، منح العديد من أبياته الاشراق المزدوج المؤلف من ايقاع الوزن الشعري ومن أنبل شكل للغة الدارجة . وليس بمقدورنا هنا ضرب أمثلة على ذلك ، لانها لا حصر لها والمستعربون سيكتشفونها دون مشقة(١) ، وسيعجبون ببراعة الشاعر الذي نجح ، وكأنه عزاف يعزف ، في اخضاع بيته الى ضبط مزدوج ، وقد عاد بهذا الشكل الى الشعر المطبوع دون التنازل عن اية ارنانية في الاوزان العربية .

ونحن اذ نسلك هذا الطريق ، نسأل انفسنا عما اذا كانت دراسة ، اكثر اهتماما ، لاشعار المتنبي ستكشف عن حرص دائم لديه ، بشعبنة البيت العربي ، وتقريب التعبير عنه ووزنه من تعبير اللغة الدارجة ووزنها . — واذا اندفعنا أبعد ، سنتعرف لدى المتنبي على عرض في غاية المهارة للكلمات في اشعاره ، والبحث عن القافية (الوحيدة في كل قصيدة) بشكل يجعل هذه تمثل اللفظ الخاص بالبيت . وسنجد في اشعاره وقائع لم تدرس بعناية في نثر الفترة العظيمة الكلاسيكية ، مثلا دفع الفعل الى نهاية جملة يتعمد الجاحظ جعل القارىء ينتظر ليزيد الى قيمتها التعبيرية القيمة المفعمة بالرنين الختامي . — وليس مطلقا مما يهمل ان نلاحظ اخيرا الاوزان التي كان يؤثرها المتنبي ، سنجد تولعه بأبسط الاوزان وبأشدها ايقاعا ، وبأنجحها تعبيرا : المتقارب والطويل والكامل والرجز . — وسنكتشف على هذا المنوال اسبابا جديدة لفهم الفوز الدائم للمتنبي .

* * *

(١) راجع البرقوقي : ج ١ ، الصفحات ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، الخ ، الخ .

وبالاجمال ، فان المتنبي شاعر مطبـوع ، استطاع ان يكون شاعر بلاط كثير الشبه ببعض البلاطات الاخرى ، وقد ساقته الظروف الى رفع صوته ، والى ان يكون صناجة عصره ، ووجـد نفسه مدمجا بالشاعر السلفي القديم . وقد حافظ على الشكل الكلاسيكي للقصيدة ، باعتباره قالبا ضروريا للتعبير الشعري العربي ، وفي الوقت نفسه كرسه بقضه وقضيضه للمدائح . وكان الماضي قد كدس الصور والافكار التقليدية ورواسم الخواطر والتعابير ، التي لم يستطع المتنبي ولم يشأ التخلي عنهـا ، ولكن الاحداث فرضت على شعره ، خلال السنوات العشر الخصبة من حياته الشعريـة ، حقائق محسوسة عادت بالحياة الى تراكيبها الميتة ومنحت الشرف للافتنانات اللفظية . والمتنبي بوصفه المؤرخ الرسمي الشعري لامير عربي ، وفي الوقت نفسه صديقه ينسينا دوره كمداح متكسب ، كانت أشعاره بعد عودتـه من الغارات على البيزنطيين والبدو تأخذ شكل الملحمة الشعرية . يضاف الى ذلك أن الامير الحمـداني أصـبح بطل الخلافة الاسلامية بمواجهة الامبراطور قسطنطين ، هذا ولا شك دون رغبة منه ، وذلـك أمر بالغ الاهميـة بالنسبة لموقف المتنبي الديني ، والنقد العربي الحديث يشير الى عدم التفاته الى الدين ، ونحن أحيانا نعزي بالقول بالحاده ، دون أن نبحث عن تفسير لذلك بما عرف عن المتنبي من قرمطية ربما تميزه في دوره المتعالى كمريـد رفيع وبكبريائـه المعروفة . ومع ذلك فان اسم الله كثيرا ما يتردد في الاشعار التي تشيد بالحرب البيزنطية : فاسم الله رمز الجهـاد « الحرب المقدسة » :

« ولسـت مليكـا هـازماً لنظيره
ولكنك التوحيد للشـرك هـازم »

ولقد ساهم دور المجاهد هذا بوضع المتنبي في عداد الشعراء الذين ساروا في طريق الملة السمحاء. أما كبرياؤه الخاصة كعربي بدوي فانها تتصـل ، لحسن الحظ ، باعتزازه بالعروبة التي كانت مطمح شطر من الرأي العام . وان انزواءه المتعالي لا يزعج ابدا انصار الانسان الاعلى .

على أن المتنبي بمواهبه الكلامية الرائعـة ، وبعظمة عبقريته الشعرية ، وبحياته الرومنتيكية ، وبعيوبه نفسها ليستحق كل الاستحقاق المكانـة المرموقة التي ما برح يشغلها في تاريخ الشعر العربي.

المتنبّي والحرب البيزنطيّة العربيّة

الاهمية التاريخية لاشعاره *

ان الحرب ضد البيزنطيين ، التي كانت شبه متصلة منذ عهد الامويين ، قد زودت الشعراء العرب بموضوع لا ينضب له إيحاء ويعتبرون من النوادر الاشخاص الخطيرون ، من خلفاء أو امراء ، الذين لم يبحثوا عن نيل المجد الديني والدنيوي معا ، بالاسهام بصورة شخصية في الجهاد ضد العدو . ونادرون ايضا اولئك الشعراء الذين لم يضحوا في سبيل الالتزام الذي يفرض عليهم الاشادة بالامجاد العسكرية للملوك الذين كانوا يتفيأون في ظلالهم ، اذا لم تحملهم اذواقهم الشخصية على التغني بالوقائع الحربية ، بل كان ثمة شعراء مجان متهتكون امثال ابي نواس ، او زهاد امثال ابي العتاهية الزموا انفسهم باطراء مزايا هرون الرشيد ومناقبه ومآثره اثناء المناسبات ، هرون الرشيد ، المدافع عن حياض الاسلام وقاهر البيزنطيين . وقد تنافس ابو تمام والبحتري في تمجيد المأمون والمعتصم وقوادهما . ولكن اعظم الشعراء المتغنين بالحرب البيزنطية دون منازع هو المتنبي ، الذي بكبريائه الفطرية وحبه المفرط للمجد ، كان مؤهلا كل التأهيل لان يغدو الشاعر الذي يصطفيه لامجاده أمير ماجد" ، أمير شغله الشاغل الحرب ، وقد ملأ اسماع العالم الاسلامي والعالم البيزنطي بقرقعات اسلحته وصخب غاراته البطولية ودويها فخلال تسعة اعوام من ٩٤٨/٣٣٧ حتى ٩٥٦/٣٤٥ التي تناظر فترة أمجد الغزوات الحمدانية ، كان المتنبي الرفيق الذي لا يفارق سيف الدولة في غاراته الكثيرة ، وان المعارك التي خاضها سيف الدولة في سوح الوغى ، والتي دارت رحاها في آسية الصغرى وسورية وبلاد ما بين النهرين ، وبسالة الامير وجرأته ، ونجاحاته ، اوحت الى المتنبي بالعديد من قصائده التي هي افضل قصائده واحظاها بالاعجاب .

ان الاحداث الرئيسية للحرب الناشئة بين بيزنطة وسيف الدولة التي شهدها المتنبي ، كان لها صداها في اشعاره بطبيعة الحال . فلم يدع أية غارة تمر دون ان يكرس لها قصيدة ، واحيانا قصيدتين . وبالاستعانة بشراح المتنبي ، بعد شعر المتنبي نفسه ، بوسعنا ان نعيد تمثيل تاريخ شبه كامل عن هذه الحرب التي اندلعت بين عامي ٣٣٧ و٣٤٥ .

في عام ٩٥٠/٣٣٩ . قام سيف الدولة بحملة كبيرة في اراضي قبدوقيا وخرشنة : وبعد ان مرّ بسمندو في اعلى خليج سيمان ، واخترق آلس خرب اطراف خرشنه وصارخه وقهر الدمستق برداس فوكاس (الفقاس) في بطن اللقان ، واثناء عودته فوجيء بالعدو فهزم في المنطقة الواقعة بين مرعش وحدث (م ـ ٤٥٠ ـ ٤٥١) وفي عام ٣٤٠/ ٩٥١ ، عبئت حملة أقل سعة من سابقتها تجنب بها سيف الدولة سمندو من جهة ، التي كان يحتفظ بها الدمستق بقوة ، ومن جهة اخرى ، لم يستطع سيف الدولة الوصول الى خرشنه بسبب الشتاء (م ـ ٤٥٨ ، ٤٦٠) .

نزور ديارا ما نحب لها مغني
ونسأل فيها غير سكانها الاذنا

وفي عام ٩٥١/٣٤١ ، اعاد سيف الدولة بناء حصن مرعش ، الذي كان قد خربه البيزنطيون . ولم يستطع هؤلاء رغم الجهود التي بذلوها ، تعطيل الاعمال (م ٤٧٢) ، ومن جهة اخرى استقبل سيف الدولة سفاره بيزنطية (٤٩٧) :

واقبلت الروم تمشي اليك
بين الليوث واشبالها
اذا رأت الاسد مسبية
فأين تفر بابطالها

وفي عام ٩٥٣/٣٤٢ تقع حملة من اضخم حملات الامير : اذ اخترق الاراضي البيزنطية من مضايق طوروس الى الشمال الغربي من سمياط ، فخرب المنطقة الواقعة بين ملطية وزبطرة وعرقه ، وتوقف عند الرجوع في درب الموزار ، ومضى صعدا صوب الشمال ، وعبر ثانية ملطية ، واجتاز قباقب ،

* اعتمدنا على الواحدي في شرحه لديوان المتنبي ، طبعة ديتريشي ، برلين ١٨٦١ .

ثم الفرات وعاد الى سورية عن طريق بلاد ما بين النهرين . ولكنه علم في الطريق بأن العدو انحرف في سورية من جهة الشمال ، فمضى جهة الساحل الايمن للفرات وتقدم بسرعة الى دلوك ، ظنا منه بانه سيلحق بالعدو اثناء تقهقره . ولكن العدو كان قد عبر فاقتفى سيف الدولة آثاره وتعقبه نحو الشمال ، فداهمه قرب مرعش وكبده خسائر فادحة مع قلة من معه من الفرسان ، وهذه احدى اهم الهزائم الحربية التي جرح خلالها الدمستق وأسر ابنه قسطنطين (٥١٤ ، ٥٢٩) :

نجوت باحدى مهجتيك جريحة
وخلفت احدى مهجتيك تسيل

وفي عام ٩٥٤/٣٤٣ ، وبعد ان استقبل سفارة رومية شرع سيف الدولة يعيد بناء ثغر الحدث وتحدى الدمستق الذي أراد الحيلولة دون هذا المشروع (٥٤٨) :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

وفي عام ٩٥٥/٣٤٤ استقبل الامير سفاره رومية جديدة (٥٥٦) واخطر جيشا معاديا على الابتعاد عن ثغر الحدث وكان قد جاء لتهديد الموقع الذي اعيد ترميمه حديثا (٥٨٣) :

اراع كذا كل الانام هام
وسمح له رسل الملوك غمام
ذي المعالي فليعلون في تعالى
هكذا هكذا وإلاّ فلا لا

وفي عام ٩٥٦/٣٤٥ حدثت الحملة البزنطية الاخيرة التي تغنى بها المتنبي :

لعقبى اليمين اعلى عقبى الوغى ندم
ماذا يزيدك في اقدامك القسم

وحدثت حملة جزئية موجهة ضد شرق خط الجبهة هنزيط ومواقع تل البطريق ومواقع اخرى من بلاد ما بين النهرين ، كانت تحت حكم يوحنا بن شمشقيق البطريق ، وتقع في شمال ارسناس ، الفرع الجنوبي من الفرات ، وهذه العملية التي لم تكن الوحيدة في تلك السنة توجت بالنجاح ، كما حالف النجاح كذلك هجمة تل البطريق حيث اندحر يوحنا بن شمشقيق البطريق في درب الخياطين اثناء انسحابه صوب ديار بكر قريبا من منابع ارغانة صوب الفرع الغربي من دجلة العليا (٥٢٤ ، ٦٠٠) :

يفم عليا ان يموت عدوه
اذا لم تغله بالاسنة غول
آلى الفتى ابن شمشقيق فاحنثه
فتى من الضرب تنسى عنده الكلم

وان القصائد التي كرسها المتنبي لكل واحدة من حملات سيف الدولة هذه تسمح لنا ان نتابع على الخريطة سير الجيوش . ونرى احيانا ان مواقع منطقة الجبهة العربية البيزنطية ، التي اشار اليها المتنبي في اشعاره ، لم يذكرها اي مؤرخ أو أي جغرافي قبله ، بل وبعده والفضل يعود الى المتنبي في تعيين هذه المواضع ، ولو على سبيل التقريب احيانا ، وهكذا نتعرف على درب القلة ودرب الموازر ، في جنوب منطقة ملطية ، او حصن الران ، على الضفة اليسرى للفرات ، بين عرقنين وسمياط وسمنين على البحيرة التي تدعى اليوم كولدجيك Goldjik في جنوب غربي خربوط الخ ..

ويذكر ياقوت في («معجم البلدان» الجغرافي) المتنبي كل لحظة واحيانا لا يذكر إلاّه . فهو اذن مصدر استعلامات عن طبوغرافية المناطق التي اخترقها الامير الحمداني ، الذي ينبغي ادخاله في الحساب رغم ضآلة دقته .

اشعاره كذلك لها اهمية تاريخية لا تنكر اذ انها وثائق معاصرة لشاهد عيان ، حضر معظم كبريات المعارك ، والف غالبا مقطوعة في الموضع نفسه وفي اللحظة التي حدثت في بحرها هذه الواقعة أو تلك أو على الاقل بعد الحدث بقليل لدى عودته مثلا من احدى المعارك . فأشعاره مصدر تزداد اهميته بعدم وجود مصدر آخر معاصر في نفس الموضوع ، لهذه الفترة وهذه المنطقة في تاريخ القرن العاشر . اذن فأشعاره هذه نافعة اكثر من مرة واحدة لتعزيز الوقائع المروية في الحكايات التاريخية التالية عليه وتحديدها ، وهي فضلا عن ذلك تستلهم المتنبي وشراحه .

ان اشعار المتنبي تجهزنا كذلك بتفصيلات لا يعرفها المؤرخون المحترفون او أنهم اهملوها ، وتسمح لنا هذه الاشعار ببعث الحياة مجددا في الحوادث مع تحديدات اكثر وحيوية اشمل وأعمق ، انها تحمل الينا حقيبة ثمينة مفعمة بالملامح اللطيفة العجيبة الدقيقة ، التي بفضلها نستطيع تشخيص مظهر مختلف كوارث الحرب العظمى للقرن العاشر وكذلك تبين سيمائها . وليس من قبيل المبالغة ان نقول ان اشعار المتنبي تعطينا من الانطباع البصري والسمعي والحقيقي للزحوف والمعارك والتعقيبات والمجازر ، اكثر مما تعطينا الحكايات التاريخية ، الخ ....

وهي افضل من الحكايات التاريخية في كونها

تقدم لنا لوحة حية عن ابهة حفلات استقبال السفراء وعظموتها ، التي لم يأت على ذكرها المؤرخون إلاّ بكلمات معدودات .

ان قصائد المتنبي تعج بهذه التفاصيل التي تشرئب اليها تطلعاتنا العصرية ، وذلك لاستحضار الماضي بصورة دقيقة .

ويرسم لنا الشاعر (وهو في غمرة وصف زحف جيوش الامير) وبصورة تأخذ بألبابنا السرعة الصاعقة لهذه الكتائب الخفيفة المدينة أحيانا ، كما نعلم ، للدهاء والظهور المفاجىء ، بالنجاحات الباهرة في سحق العدو المفاجأ ، رغم تفوقه في العدد ففي سنة ٣٣٩ ، اثناء حملة خرشنة ، لم يكن لجنود سيف الدولة من الوقت الا ما لا يكاد يكفيهم لايراد خيولهم الماء دون فك شكائمها » (١٠-٤٥١) .

قاد الحقانب اقصى شربها نهل
على الشكيم واذى سيرها سرع

وحين يرتقى الامير آلس في اللقان ، لمباغته الدمستق ، فبسرعة فائقة (٤٥١/١٩) :

يذري اللقان غبارا في مناخرها
وفي حناجرها من السنِ جرعُ

وقد غلب برداس على امره لانه ظن ان القضية قضية مفرزة لا اهمية لها (١٧ - ٤٥١) :

ذم الدمستق عينيه وقد طلعت
سود الغمام فظنوا انها فزع

بالاضافة الى ذلك ، فانها لوحة مبهجة في تصوير غزو هنزيط عام ٣٤٥ ، ومرور الجيش قرب بحيرة سمنين (١٩ - ٦٠٠/٢٠) :

وشزّب احمت الشعرى شكائمها
وسمتها على آنافها الحكم
حتى وردن بسمنين بحيرتها
تنش بالماء في اشداقها اللجم

والمتنبي يلاحظ باعتناء دائما عبور الانهار ، لانه ابدا عملية دقيقة يبدو ان فرسان سيف الدولة كانوا بارعين في تنفيذها . انه عبور فرع من الفرات: قباقب ثم الفرات نفسه عام ٣٤٢ (٣٠-٥١٤/٣١) :

يطارد فيه موجه كل سابحٍ
سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه
واقبل راس وحده وقليل

المتنبي كان ينفض يديه بعد تصوير لوحه جدارية حين جلا لاعيننا عبور ارسناس : فالنهر ، وقد شكل حاجزا بين سحابتين من الغبار تنعقدان فوقه، تمثل احداهما الجيش المتقدم نحو الشاطيء الجنوبي للاجتياز ، والثانية الجيش الذي بعد ان عبره ابتعد عن الشاطيء الشمالي . ويعني كذلك باعطائنا التفاصيل التي تتحدث الى الحواس (١٧-١٩/ ٥٩٤) :

حتى عبرن بأرسناس سوابحا
ينشرن فيه عمائم الفرسان
يقمصن في مثل المدى من باردٍ
يذر الفحول وهن كالخصيان
والماء بين عجاجتين مخلّص
تتفرقان به وتلتقيان

انها لوحة رائعة روعة لوحة قطيع الاسرى الذين يعبرون ارسناس ، مطروحين على سفن ، لينقلوا الى ديار الاسلام ويقذفوا الى الحدود (٥٩٤/٢٣ - ٦٠٠/٣٣) :

تأتي بما سبق الخيول كأنها
تحت الحسان مرابض الغزلان
تلقى بهم زبد التيار مقربة
على جحافلها من نضحه رثم
وقد تمنوا غداة الدرب في لجب
ان يبصروك فلما ابصروك عموا

ان سحن المعارك وما تجره معها من نكبات ، وهي قلما تظهر لدى المؤرخين ، تبرز بصورة مدهشة في اشعار المتنبي. ونذكر على سبيل المثال اشتباك اللقان القصير العنيف ، الذي وقع سنة ٣٣٩ ، وانهزم فيه الدمستق ، بعدما « ما التف الرماحان ساعة » (٢٩ - ٤٧٢/٣٠) :

مضى بعدما التف الرماحان ساعة
كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولّى وللطعن سورة
اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

وثمة المفاجأة في مخارم الجبال ، حيث تسلق المسلمون واحدا واحدا الشعاب الوعرة ، وهم يقاتلون قتال الاسود ضد عدو متحصن بالقمم (٣٤ - ٤٥١) :

هلا على عقب الوادي وقد صعدت
اسدٌ تمر فرادى ليس تجتمع

وهناك تحتم على الامير ان يبذل من نفسه لكف رجاله عن الهزيمة (٤٥١/٧) :

وفارس الخيل من خفت فوقرها
في الدرب والدم في اعطافها دفع

وتخلى عنه اصحابه الذين شجب المتنبي جبنهم (٣٠ ـ ٣٣ ـ ٤٥١) :

قل للدمستق ان المسلمين لكم
خانوا الامير فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم قياما في دمائكم
كأن قتلاكم اياهم فجعوا
ضعفى تعف الاعادي عن مثالهم
من الاعادي وان هموا بهم نزعوا
لا تحسبوا من اسرتم كان ذا رمقٍ
فليس يأكل إلاّ الميتة الضبع

وقد قامر سيف الدولة بكل شيء وفي سورة من سورات الغضب الاعمى أمر بقتل الاسرى الذين اثقلوا مسيرته (٤٥١/٢٧) .

كم من حشاشة بطريقٍ تضمنها
للباترات امين ماله ورع

وشق طريقه على راس بقية رجاله (٤٥١/٤١) :

لم يسلم الكر في الاعقاب مهجته
ان كان اسلمها الاصحاب والشيع

وهي معركة عام ٣٤٣ الدامية على جبل الاحيدب امام ثغر الحدث ، حيث ترك فرسان الامير الارض اثناء صعودهم هاجمين على وكور النسور في القمة مغطاة بجثث الاعداء (٢٩ـ٣٠/ ٥٤٨) :

نثرتهم فوق الاحيدب كله
كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

ونراهم يدورون دوران الاعصار في قرى هنزيط عام ٣٤٥ ، يقتلون الرجال ويغنمون نساءهم واطفالهم (٢١ ـ ٦٠٠/٢٤) :

واصبحت بقرى هنزيط جائلة
ترعى الظبا في خصيب نبته اللحم
فما تركن بها خلدا له بصرٌ
تحت التراب ولا بازا له قدم
فلا هزبرا له من درعه لبد
ولا مهاة لها من شبهها حشم
ترمي على شفرات الباترات بهم
مكامن الارض والغيطان والاكم

ويدخلون تل البطريق وراء الامير ، وسيوفهم مشهورة بايديهم (٢٩ ـ ٦٠٠/٣٢) :

عبرت تقدمهم فيه وفي بلدٍ
سكانه رمم مسكونها حمم
وفي اكفهم النار التي عبدت
قبل المجوس الى ذا اليوم تضطرم
هندية ان تصغر معشرا صغروا
بحدها او تعظم معشرا عظموا
قاسمتها تل بطريق فكان لها
ابطالها ولك الاطفال والحرم

ونشهد هزيمة الروم المجنونة في درب الخياطين (٣٦ ـ ٥٦٤) :

فرموا بما يرمون عنه وادبروا
يطوون كل حنية مرتان

وما حال ابن شمشقيق ؟ (٦٠٠/٤٤) :

واسلم ابن شمشقيق اليته
الا انثنى فهو يناى وهي تبتسم
ترد عنه قنا الفرسان سابغة
صوب الاسنة في اثنائها ديم

والمتنبي ماهر في رسم الكتلة المؤشرة للجيوش البيزنطية (٤٩ ـ ٢٦/٥١٤ ـ ٦١٨/٢٨) :

أغركم طول الجيوش وعرضها
عليٌ شروب للجيوش اكول
اتاهم باوسع من ارضهم
طوال السبيب قصار العسب
تغيب الشواهق في جيشه
وتبدو صغارا اذ لم تغب
ولا تعبرا الريح في جوه
اذا لم تخط القنا أو تثب

كما هو بارع في وصف خياله كتائب الحرس، المدججين بالحديد ، الراكبين على جياد مغطاة هي ايضا بدروع حديدية تخفى سيقانهم (١٦ـ١٧/٥٤٨):

اتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد مالهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض فهم
ثيابهم من مثلها والعمائم

واليكم ترتيب صفوفهم الجميل المصمت الذي يرج الارض رجا وضجيجهم المختلط الذي يصل الى آذان النجوم (١٨ ـ ٥٤٨) :

خميس بشرف الارض والغرب زحفه
وفي اذن الجوزاء منه زمازم

وتأليف هذه الكتائب العشوائي من المرتزقة ، من الروس والبلغار والسلاف الخ ـ وارتطام لغاتهم الاجنبية التي تقتضي ضرورة وجود مترجمين (١٤ـ١٨ـ١٩/٥٤٨ ـ ١٢ ـ ٥٨٣) :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها
وذا الطعن اساس لها ودعائم

خميس ...
تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الاحداث إلاّ التراجم

يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها وتجمع الآجالا ولعل القصيدة المؤلفة بمناسبة حملة عام ٣٤٢ ، (آية سيف الدولة) هي اكمل مثال على القصص الحربي ، فالحوادث تجري في حركة ملحمية قوية ، وكل نكسة من نكسات هذه الحملة المترجرجة جدا مبرزة بشكل تفننت فيه قريحة المتنبي المصور . فنرى فيالق الامير تغطي الجبال في منطقة دلوك وصنجة (١٩ ـ ٥١٤/٢٠) ونلمح انقضاضها على العدو (٥١٤/٢١) وانتحاب المأسورات، وهن يمزقن ثيابهن في عرقه (٢٣ ـ ٥١٤)

والانسحاب المعرقل في درب الموزار والرجوع الى ملطية التي تضرم فيها النيران ويسال الدم (٢٤ ـ ٥١٤/٢٧) ، واجتياز قباقب التي تسحقها كراديس الخيل ، وعبور الفرات الذي فزع من هذه السيول البشرية المنقضة عليه (٢٨ ـ ٥١٤/٣٢) والمذابح الجديدة في هنزيط (٥١٤/٣٢) ووصول الجيوش المنهكة الى حصن الران في ديار الاسلام ، تلك الجيوش التي ادركها الدجا من شدة الزحف فسقطت نازحة كليحة (٥١٤/٣٥) . ثم يعود الزحف الى سيرته الاولى في القطر المضطرب الذي يمتد من هناك الى سميساط ، يزحف الجيش ليلا ونهارا ، اذ ينبغي مداهمة العدو الصائد من سورية مثقلا بالاسرى (٣٧ ـ ٥١٤/٣٨) .

وتدور المعركة قرب مرعش وتحيق الهزيمة بالروم ، يتعقب سيف الدولة فلولهم ، وتحطم ضربات السيوف بيض رؤوسهم (٥١٤/٤٣) . واخيرا يبدو برداس فوكاس (الدمستق) مقهورا منتحبا مدمىً ، لانه جرح في وجهه ، وجرح جرحا ابلغ في قلبه ، وذلك لتركه ولده قسطنطين الى خطّية العرب والى حديد الأسْر (٤٦ـ٥١٤/٤٨) :

فلما تجلى من دلوك وصنجة
علت كل طود رايه ورعيل
على طرق فيها على الطرق رفعة
وفي ذكرها عند الانيس خمول
فما شعروا حتى رأوها مغيرة
قباحا واما خلقها فجميل
وامسى السبايا ينتحبن بعرقةٍ
كأن جيوب الثاكلات ذيول
وعادت فظنوها بموزار قفلا
وليس لها الا الدخول قفول
فخاضت نجيع الجمع خوضاً كأنه
بكل نجيع لم تخضه كفيل
تسايرها النيران في كل مسلكٍ
به القوم صرعى والديار طلول
وكرت فمرت في دماء ملطية
ملطية أم للبنين ثكول
واضعفن ما كلفنه من قباقب
فاضحى كأن الماء فيه عليل
ورعن بنا قلب الفرات كأنما
تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابح
سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه
واقبل رأس وحده وقليل
وفي بطن هنزيط وسمنين للظبا
وصم القنا ممن ابدن بديل
وبتن بحصن الران رزحى من الوحى
وكل عزيز للامير ذليل
ودون سميساط المطامير والملا
وأودية مجهولة وهجول
لبسن الدجى فيها الى ارض مرعش
وللروم خطب في البلاد جليل
فودع قتلاهم وشيع فلّهم
بضرب حزون البيض فيه سهول
نجوت باحدى مهجتيك جريحة
وخلفت احدى مهجتيك تسيل
اتسلم للخطية ابنك هاربا
ويسكن في الدنيا اليك خليل
بوجهك ما انساكه من مرشةٍ
نصيرك منها رَنَّة" وعويل

ينبغي كذلك تخصيص موضع للقصائد المستوحاة من استقبالات السفراء البيزنطينيين في حلب ، تلك القصائد التي تطلعنا اعجب اطلاع على هدف الاحتفالات التي يستعان بها لادهاش رسل الامبراطور بشدة وارهابهم . انهم يمثلون امام الامير مخطوفة ابصارهم ببريق أسلحة حرس الشرف ولمعانها (٢٨ / ٤٩٧) ؛ ويمتد صفان من الجنود حتى عرش الامير (٥٣٧/٦) ، مع ازدحام هائل (٥٣٦/٢) وبعد ان قبّل السفراء الارض قبلوا كمّ الامير (٧ـ٩ / ٥٣٧) . وهكذا فبفضل اشعار المتنبي استطعنا ان نمثل لانفسنا بعض التمثيل مظهرا من مظاهر بلاط سيف الدولة :

فلما دنا اخفى عليه مكانه
شعاع الحديد البارق المتألق

يقوم تقويم السماطين مشيه
اليك اذا ما عوجته الافاكل
تزاحم الجيش حتى لم يجد سببا
الى بساطك لي سمع ولا بصر
فقاسمك العينين منه ولحظه
سميك والخل الذي لا يزايل
والبصر منك الرزق والرزق مطمع
والبصر منه الموت والموت هائل
وقبّل كما قبل الترب قبله
وكل كميّ واقف متضائل

ومن جهة اخرى يعيننا المتنبي على تصور الجو المعنوي للحرب العربية البيزنطية وعالم الافكار والاحاسيس الذي يضطرب فيه الممثلون المسلمون لهذه الدراما . وهنا ايضا يزودنا المتنبي بوثائق لن نستطيع العثور عليها في الحكايات التاريخية .

من استطاع افضل مما استطاع المتنبي تسليط الضوء على الشجاعة وحب المجد والحرب والاحاسيس البطولية التي كانت روح سيف الدولة مشبعة بها ، وكذلك ارواح قواده والمتنبي نفسه ؟ أية مؤاخذات دامية وجهها الشاعر الى الجبناء الذين خذلوا الامير في مفاجأة عام ٣٣٩ ! (٣٠-٢٣، ٣٩،٣٦) وبأية حرارة شجع الجيش في تقدمه الجسور الى الامام ، عندما علم الناس عام ٣٤٠ ، بوصول الدمستق الى سمندو ومعه ٤٠٠٠٠ رجل (٩-٤٥٨/١١) ! وبأي شهامة متحمسة تغنى بانتصارات سيف الدولة في قبادوقيا ، عام ٣٣٩ ! « الدمستق لم يرض بحكم السيوف والرماح ، ولكنا نحن راضون . ـ فاذا سار نحونا فقد زرنا سمندو ، واذا انسحب فموعدنا البسفور ! » (١١ ـ ٤٥٠/١٢) ويكمن سر الانتصارات العظمى التي احرزها سيف الدولة وقواته حتى عام ٣٤٥ (بصرف النظر عن مفاجأة عام ٣٣٩) في الحماسة الشابة، التي عبر عنها المتنبي انتصارات سيف الدولة وقواته على جيش ، متفوق في العدد ، ولكنه سيء القيادة الموكولة الى قائد طاعن في السن خامل هو برداس فوكاس .

قل للدمستق ان المسلمين لكم
خانوا الامير فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم نياما في دمائكم
كأنّ قتلاكم اياهم فجعوا
ضعفى تعف الأيادي عن مثالهم
من الاعادي وان هموا بهم نزعوا
لا تحسبوا من اسرتم كان ذا رمقٍ
فليس يأكل إلاّ الميتة الضبع
وانما عرّضَ الله الجنود بكم
لكي يكونوا بلا فَسْلٍ اذا رجعوا
وهل يشينك وقت كنت فارسه
وكان غيرك فيه الفارس الضرع

تعد القرى والمس بنا الجيش لمسةً
نبار الى ماتشتهي يدك اليمنى
فقد بردت فوق اللقان دماؤهم
ونحن اناس نتبع البارد السخنا
وان كنت سيف الدولة العضب فيهم
فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا

رضينا والدمستق غير راضٍ
بما حكم القواضب والوشيج
وان يقدم فقد زرنا سمندو
وان يحجم فموعدنا الخليج

من الطريف كذلك بالنسبة للمؤرخ ان نتبين في قصائد المتنبي ، المكرسة للحرب البيزنطية ، التعبير عن شعور أمد الامارة الحمدانية في حلب بالقوة ذلك الشعور الذي كان قد تثلم حده وفلّ عزمه في الامكنة الاخرى .

وثمة شعور مزيج بنكهة عزة قومية عربية ، لا يبدو غالبا في أشعار هذا الصنف (٥٤٨/٤٠ ـ ٥٩٤/٤٦) هو الشعور القومي الاسلامي ، الذي انعشه طبيعيا استئناف الهجوم البيزنطي على الشرق في القرن العاشر ، وانبعاث روح جديدة في الامبراطورية لاسترداد الاقاليم المفقودة .

لقد منح المتنبي اكثر من مرة سطوة كلمته لتمجيد الاسلام والذين يجاهدون في سبيله. ورفع العيوق البطل الذي لا يدافع عن الثغور فقط (٤٧٢/٢٢) ويعيد بناء الاماكن التي خربها العدو ، ويرد الدين الى حدث (٥٤٨/٢) . وانما كذلك الذي يرفع منابر الوعظ ويؤمن إقامة صلاة الجمعة في قلب الاراضي البيزنطية ، في صارخه (٤٥١/١٤). ومن هو فرحة المسلمين قاطبة (٤٥١/١٤) الذي يجسد عقيدة التوحيد ويهزم أئمة الشرك (٣٩/ ٥٤٨) . والذي دينه يزيل كافة الاديان الاخرى (٥٨٩/٢٧) :

تشرف عدنان به لا ربيعة
وتفتخر الدنيا به لا العواصم
رفعت بك العرب العماد وصيرت
قمم الملوك مواقد النيران
هنيئا لاهل الثغر رأيك فيهم
وانك حزب الله صرت لهم حزبا

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
مخلىً له المرج منصوبا بصارخةٍ
له المنابر مشهوداً بها الجمع
ولست مليكا هازما لنظيره
ولكنك التوحيد للشرك هازم
وذراع كل ابي فلان كنيته
حالت فصاحبها ابو الأيتام

وتعكس اشعار المتنبي بوضوح روح «الجهاد» (الحرب المقدسة) ، في انبل مظاهرها وانزهها ، وهذا ما ينبغي ان نشدد القول عليه ، في اشرس مظاهرها . والمتنبي لا يشيد فقط بالمجاهد ، الذي يمضي قدما فرحا باستشهاده وتضحية نفسه لمثله الاعلى ، الذي يعتبر الموت لاجله هي الحياة الحقة (٥٩٤/٣٣) ، ولكنه يتغنى ايضا بالغزو المدمر الحارق في القطر المعادي (٢٣و٢٥و٥١٤/٢٧) . ولا شك ان لديه من سامعيه مشاركين له في احاسيسه :

وفوارس يحيى الحمام نفوسها
فكانها ليست من الحيوان
فخاضت نجيع الجمع خوضا كأنه
بكل نجيع لم تخضه كفيل
وكرت فمرت في دماء ملطية
ملطية ام للبنين ثكول
وامسى السبايا ينتحبن بعرقةٍ
كأن جيوب الثاكلات ذيول

والمتنبي لا يمجد النصر لانه نصر ، وانما لكونه نصرا على الاعداء . ياله من ابتهاج غليظ في الابيات التالية :

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا
والنهب مما جمعوا والنار مازرعوا
وربوا لك الاولاد حتى تصيبها
وقد كعبت بنت وشب غلام
فلم يبق إلاّ من حماها من الظبا
لمى شفتيها والثديُ النواهدُ
تبكي عليهن البطاريق في الدجى
وهنّ لديها ملقيات كوامدُ
بذا قضت الايام ما بين اهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد
جاز الدروب الى ما خلف خرشنةٍ
وزال عنها وذاك الروع لم يزل
وكلما حلمت عذراء عندهم
فأنما حلمت بالسبي والجمل

هنا احيانا لعب بالالفاظ ، وبعض المبالغات الشعرية . ولكن التعبير في جوهره حاشد بالصور والوقائع وذو أحاسيس عميقة بحيث كان يتجاوب معه جيش سيف الدولة باجمعه .

ومن الطرافة ان نرى كيف تتصور حاشية سيف الدولة الخصوم ، وهم البيزنطيون ورؤساؤهم ، وما هو رأيها فيهم . وبصورة عامة، الروم اعداء حقراء ، منذورون دائما لان يكونوا مقهورين « اشقياء » (٤٥٨/٤) :

وقد علم الروم الشقيون اننا
اذا ما تركنا ارضهم خلفنا عدنا

انهم جبناء : عاجزون حتى عندما يستفيدون من الكمائن المهيأة سلفا، عن صد المسلمين الاسود، ولا يحرزون انتصارات إلاّ على قوات منهكة من التعب ولا يظفرون إلاّ بقائد خذله جنوده ، وحتى في هذه الحالة يتكبدون خسائر اكثر مما يتكبدها خصومهم ، اما الذين يقعون في اسرهم فهم جثث ، والروم ليسوا سوى ضباع تفترس الموتى (٣٠ ـ ٤٥١/٣٥) . ومهما صنعوا فانهم سيظلون فريسة للمسلمين ، حتى لو لاذوا بمعاقل جبل الوعول ، ولن يفلتوا من الضربات التي تنتظرهم (٤٨٧/٣١ ـ ٤٥١/٤٦) وهم انفسهم يستمطرون البركات من الامير الذي ذبحهم (٥٥٦/٢٠) :

قل للدمستق ان المسلمين لكم
خانوا الامير فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم نياما في دمائكم
كأن قتلاكم اياهم فجعوا
ضعفى تعف الايادي عن مثالهم
من الاعادي وان هموا بهم نزعوا
لا تحسبوا من اسرتم كان ذا رمق
فليس يأكل إلاّ الميتة الضبع
هلا على عقب الوادي وقد صعدت
أسد تمر فرادى ليس تجتمع
تشقكم بقناها كل سلهبة
والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع
وما الفرار الى الاجبال من أسدٍ
تمشي النعام به في معقل الوعل
وما الجبال لنصران بحاميةٍ
ولو تنصر فيها الأعصم الصدع
على وجهك الميمون في كل غارةٍ
صلاة توالى منهم وسلام

وحين يتحدث المتنبي عن السفراء ، الذين جاؤا في تلك الفترة يلتمسون عبثا هدنة من امير مزهو بانتصاراته ، لم تكن لديه كفاية من الكلمات المذلة لتصوير موقفهم بدقة ، فهم يرتعدون فرقا ولا يستطيعون المشي معتدلي القامة ، تنظر اعينهم بفزع الى سيف الامير (٥ ـ ٥٣٧/٧) . ولم يخفوا

لطلب الهدنة ، وانما لالتماس العفو (٤ – ٥٣٦) ، انه ميثاق حماية (١٠ – ٥٥٦) . من العقم ان نقول أن هذا التصوير لا يطابق الواقع :

أتاك يكاد الرأس يجحد عنقه
وتنقد تحت الذعر منه المفاصل
يقوم تقويم السماطين مشيه
إليك اذا ما عوّجته الافاكل
فقاسمك العينين منه ولحظه
سميك والخل الذي لا يزايل
اليوم يرفع ملك الروم ناظره
لأن عفوك عنه عنده ظفر
فان كنت لا تعطي الذمام طواعه
فعوذ الاعادي بالكريم ذمام

والشاعر لا يدع فرصة تفلت منه ابدا دون الهزء بالامبراطور والتندر عليه . ففي خيمة سيف الدولة تمثل قطعة قماش ، على ارضية مزخرفة ، مشهد صيد في غيضه ، والامبراطور المتوج يتذلل امام الامير (١٩–٣٧٣/٢٣) كقيصر الروم وهو يقدم الولاء لكسرى ، في الالواح الساسانية . وهو حين يبعث بسفارة الى الامير فانه « يتخذ هيئة التوسل والتملق » ، وهو « الشاعر بتخلفه في استعمال الرماح (٢٤ – ٤٩٧/٢٥) ، وهو لا يحلم، حين يوجه رسائله الى سيف الدولة إلا بتحويل جيوشه عنه(٥٣٧/١) . وعلى النقيض من ذلك، حين يكتب الامير الى الامبراطور ، فانما ذلك بسيوفه على عنق الدمستق (٤٩٧/٣١) فأية سخافة من جانبه بارادة تخريب ثغر الحدث الموضوع كحمل ثقيل بين اذنيه ! (٩ – ٤٣٢/١٠) :

عليها رياض لم تحكمها سحابة
واغصان دوحٍ لم تغنّ حمائمه
وفوق حواش كل ثوب موجّهٍ
من الدر سمط لم يثقّبه ناظمه
نرى حيوان البر مصطلحا بها
يحارب ضد ضده ويسالمه
اذا ضربته الريح ماج كأنه
تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه
وفي صورة الرومي ذي التاج ذله
لا بلخ لا يتجاف إلاّ عمائمه
رآى ملك الروم ارتياحك للندى
فقام مقام المجتدي المتملقِ
وخلى الرماح السمهرية صاغرا
لا دَرَبَ منه بالطعان وأحذق
دروع لملك الروم هذي الرسائل
يرد بها عن نفسه ويشاغل

وكنت اذا كاتبته قيل هذه
كتبت اليه في قذال الدمستق
ولم يخل من اسمائه عود منبر
ولم يخل دينار ولم يخل درهم
ضروب وما بين الحسامين ضيق
بصير وما بين الشجاعين مظلم

ولكن حمية المتنبي لا تثور خاصة إلا ضد برداس فوكاس (الدمستق) . فهو جبان يفر على الدوام ، وقد امتقع لونه من الخوف (٢٤–٢٦/ ٤٥١) ، واذا ذكرت نفسه الواقعة لمس الجنب متعجبا من بقائه على قيد الحياة . ويجرح عام ٣٤٢ في معركة مرعش ، فيفر بصورة مخجلة ، تاركا ابنه بيدي سيف الدولة ، مضحياً به للفوز بسلامة نفسه . « يقذفه المتنبي بقوله : « هل تظن انك بهروبك وتركك ابنك للقنا الخطية ، تستطيع ان توحي الثقة في نفس صديق ؟ » . (٥١٤/٤٧) ويمثل الشاعر بصورة لطيفة برداس فوكاس ، غب هذا الحدث ، وقد طارت نفسه شعاعا ، وهو ينطلق الى الدير للتوبة ، مرتديا المسوح وبيده عكاز الراهب (١٦ – ٥٢٩/١٧) .

وفي السنة التالية حين ينهزم مرة اخرى امام ثغر الحدث حيث يفقد صهره وحفيده ، يهتبل المتنبي الفرصة للسخرية منه : « هل سيظل هذا الدمستق على جرأة التقدم نحوك لينهزم بعدئذٍ ويرى قفاه يلوم طيشه لدى وجهه ؟ – ألن يعرف أذن ابدا رائحة الاسد قبل الشعور بهياجه ؟ » (٣٣ – ٥٤٨/٣٤) ويعرض به بكونه ضحى باصحابه مجددا للنجاة بحياته (٥٤٨/٣٨) وقد نال ابن الشمشقيق ، المقهور عام ٣٤٥ ، من الضحك على ذقنه ما فيه الكفاية ، لقد اقسم ابن شمشقيق بايقاف سيف الدولة عند حده ، فارغم على الحنث بيمينه ويكذب في وعوده (٢–٣/ ٦٠٠) ولاذ بالفرار « تحت الضحك من حلقه » (٦٠٠/٤٢) وقد حمته درعه والغابات التي لجأ اليها من الموت :

أجلّ من ولد الفقاس منكتف
اذ فاقهن وأمضى منه منصرع
وما نجا من شفار البيض منفلت
نجا ومنهن في احشائه فزع
يباشر الامن دهرا وهو مختبل
ويشرب الخمر دهرا وهو ممتقع
ولكنه ولى وللطعن سورةٌ
اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
وخلّى العذارى والبطاريق والقرى
وشعث النصارى والقرابين والصلبا

اتســـلم للخطيــة ابنــك هــارباً
ويســكن في الدنيــا اليــك خليــل
فاصــبح يجتــاب المســوح مخافــه
وقــد كان يجتــاب الدلاص المسرّدا
ويمشــي به العكاز في الدير تائبــاً
وما كان يرضى مشي اشقر اجردا
افي كل يوم ذا الدمســتق مقــدم
قفــاه على الاقــدام للوجــه لائم
اينكــر ريح الليث حتى يذوقــه
وقــد عرفت ريح الليــوث البهائم
يُســرُ بمــا اعطاك لا من جهــالة
ولكن مغنومــاً نجــا منــك غــانم
وفي اليمــين على مــا انت واعــده
مــادل انــك في الميعــاد متهــم
آلى الفتــى ابن شمشقيق فأحنثــه
فتىً من الضرب تنسى عنده الكلم
واســلم ابن شمشــقيق آليتــه
الاّ انثنى فهــو ينأى وهي تبتســم

من البداهة وجود مبالغــة لا يستغل بهــا المؤرخ ، وكون معظم التفصيلات عن جبن كبــار القادة البيزنطيين مما ينبغي نبذه وهــذه المبالغة ليست مرجعه عمق الشعور بالكراهية التي يكنها المسلمون لاعدائهم ، الذي لا يعادله إلاّ عمق الشعور بالكراهية لدى الروم تجــاه المسلمين واعتبارهم كفرة . بل هناك شيء آخر . فهاهو ماثل أمامنا الاســلوب الملحمي العزيز على قصاص حكايات الفروسية واغاني البطولة ، والانحياز المنسق لغرض إطراب جمهور معين ، والقدح دائما بالعدو وتمثيله ابدا بهيئة الجبان ، الذي يهرب رغم تفوقه في العدد. فبرداس فوكاس هو الرأس البليد في نظر المتنبي ، فهو يخلق منه اضحوكة ، ويجعله رمزا للخوف ، وحتى ورعه ، الذي يدفعه الى انسحاب تكفيري بعد موت ابنه ، يعتبره المتنبي دليلا على فزعه . نظرة لا تتسم بالدقة ، دون شك . ومع هذا فان المؤرخ المحايد سيوازن بين رأي المتنبي في برداس فوكاس والحكم الذي يصدره بحقه مؤلف بيزنطي من القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، الا وهــو ســيدرنوس Cedrenus هذا المؤرخ نزر الميل الى الدمستق ، فهو يعترف بانه لم يصنع شيئا أو بالاحرى لم يصنع شيئا عاد بالخير على الامبراطورية، وحين يتحدث عن تضمينه احد خدامه أو احــد اتباعه لانقاذ حياة الامبراطور ، فكأننا نسمع حديث المتنبي عنه . ولعل سيدرنوس لم يكن يفكر تفكيرا بعيداً عن تفكير الشاعر العربي المتنبي (٢، ٣٣٠ ، سيدرنوس) . وفضلا عن ذلك لا يصح ان ننسى ان نقفور ، ابن برداس لم يرتكب جريره بتوجيه تقريعات حادة الى ابيه على سلوكه اثناء الحرب .

لقد خلف لنا المتنبي صورة حية ، وغير دقيقة جزئيا ، عن الحرب البيزنطية ، ولكنها ذات اهمية تاريخية هائلة . ذلك ان اشعاره تنقل نقلا رائعا الجو الذي ساد في الجانب العربي، حوالي عام ٩٥٠م وما تلاه من الاعوام . تلك كانت الفترة التي تحــول خلالها سيف الدولة من كونه أميرا صغيرا في بلاد ما بين النهرين الى غدوّه سيد سورية الشمالية وتخومها الحربية ، فالفى نفسه المدافع الوحيد عن الاقاليم الاسلامية ضــد البيزنطيين ، فاســتعاد وحده كذلك التقاليد الحربية كعظام الخلفاء ، بينما كان الملوك المسلمون الآخرون يغطون في الملل والكسل. واستطاع بموارده المحدودة المدعمة بحماس الشباب في الوقت نفسه ، والمعززة بحمية وجراة لا نظير لهما ، النجاح في تكبيد العدد التقليدي هزائم منكرة، وجعل برداس فوكاس وابناءه ويوحنا الشمشقيق وكافــة قــوى الامبراطوريــة يلهثــون من الفزع والجزع وطوال اقامة المتنبي الى جواره ، لم يعرف سيف الدولة شخصيا الا الانتصارات وهذا مــا ادهش المتنبي بل هذا مصدر وحيه وهذا ما دفع قصائده بتلك اللهجة الحربية . ولهذا كانت هذه القصائد اناشيد مجد انتصار وقد ظلت غزوات الامير البطولية مدوية الرنين في أذني الشاعر حتى بعد رحيله عن سيف الدولة ، جريح الكرامة ، وحتى عــام ٣٥٣ حين نالت الجيوش البيزنطية من مقاومة سيف الدولة نقول حتى تلك الحقبة لم يتأخر عن الاشادة بالبطل المظفر سابقا ، الذي كان يراه دائما حاملا نفس الملامح ، وذلك في اجابته على رسالة الامير التي طلب فيها اليه العودة الى حلب (٣١/ ٦١٨) :

نأيــت فقاتلهــــم باللقــــاء
وجئــت فقاتلهــم بالهــرب

ان هــذا التعليق المتحمس الذي صاغه المتنبي من غارات سيف الدولة ، لا نعيره نحن قيمة حكاية تاريخية . ومن السهولة بمكان ان نتبين في شعره مبالغات علّتها المديح ، وهوس رسم الصور والولع بالبحث اللفظي الذي يضر بصدق الحقيقة . ولكن لا يمكن كتابــة تاريخ الحرب باســتخدام جفاف البلاغات الحربية واقتضابها فقط... فيتحتم اذن على مؤرخ الحروب العربية البيزنطية استعمال عناصر الاعلام وتقدير المواقف التي يمنحنا اياها «الربورتاج» بغيــة ابراز الملامح الجذابة في المتنبي ، وبعث ذكراه بقوة ، وذلك في حدود امكانية استخدام هذه العناصر.

المغزى التاريخي للعروبة في شعر المتنبي

من الطريف إلقاء نظرة الى الوراء(١) نحو احدى المراحل التي سبق ان ارتسمت فيها الخطوط الكبرى للتطور المقبل . فعلى مسافة ألف سنة غابرة ، تستطيع الاماني العربية المعاصرة أن تتعرض على صورة ما يجب أن يكون عليه شأن التفوّق العربي وذلك في عقل الشعر القومي العظيم وروحه الذي توج فيه الاعقاب أصفى ممثل للغنائية العربية.

لقد ختم العصر العباسي أيامه بتدهور لا سبيل الى نكرانه . فقد كانت ردود فعل فارسية وآرامية تجهد نفسها على صعيد العلوم والفنون للانتقام من الفتح آنئذٍ حدث ان استيقظ بدوره الوعي العربي، الضروري لتوحيد هذا الموزاييك من الشعوب ، الموازييك الذي جريت مواهبها فيه الاتجاهات المختلفة . وفي فترة تقطع اوصال الامبراطورية سنرى الثقافة العربية ثم العنصر العربي يستعان بهما للم شعث الاوصال المبعثرة بغية صهرها في أمة واحدة ، تشعر انها متضامنة الاطراف .

ان العربي المزهو بمفاخره الحربية ، كان قد شعر في عهد سلام وانبعاث علمي بالحاجة الى الانطواء على الذات ، وذلك للتأمل والتدبر والدرس . وفي اوان استئناف رسالته التاريخية بوصفه دليلا وموحدا ، رفع رأسه واستعاد كبرياء ذكرياته . ولن يلبث طويلا حتى يفرض تفوقه الذي تبرهن عليه حماسة الدخلاء للاندماج فيه . وان أحد عظماء هذا البعث هو الشاعر الخالد الذي نحتفل اليوم بذكراه الالفية .

* * *

ان هذا الاستحقاق لم يعترف له به على الدوام دون تحفظات ، ظاهرة كانت أو خفية . وان دراسة معاصرة تشمله بأعدل عدالة ـ هي دراسة شفيق جبري ـ قد رنّ صداها في كل مكان ، وكان هدفها الوحيد دحض بعض التقولات الادبية التي رغم انقضاء خمسة عشر عاما على نشرها ، تعود الى الظهور في فترات معينة مدفوعة ببعض الدوافع للنيل من المتنبي أثناء دوران المناقشات حوله .

حاول بعض الكتاب اقامة دعوى حقيقية مغرضة على شاعرنا المتنبي لمحاكمته على تحمسه للقومية العربية . ونستطيع ان نسدل ستار الصمت على بعض الفقرات المثارة للتقليل من شأنه . وبعض هذه الفقرات وجعلها خطأ في التفسير . الم يشهر المغرضون ضده بديهيات غنائية من أدنى الدرجات كهذا البيت :

أبدا أقطع البلاد ونجمي
في نحوس وهمتي في سعود

حول هذا الموضوع ، هل عانى شفيق جبري أي مشقة في البرهنة ، وهو يورد البيت التالي على ان هذا شيء اعتيادي بخصوص غياب الكائن المعشوق ؟

هل ينبغي اضفاء أهمية اخطر على مبالغات منبعها الغرور الشخصي وهي التي كانت تقابل دائما بالتسامح تجاه الشعراء :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

(١) ان هذا البحث ـ رغم جودته ـ حافل بما يتناكر وسياسة المجلة . وقد شاءت هيئة التحرير أن تسقط منه مايخدش المألوف المتواتر كما استكفت بعنوانه الذي يراه القاريء عن العنوان ـ الاصل الذي كان : المغزى التاريخي للعنصر العربي في شعر المتنبي (المورد) .

ولنغض الطرف كذلك عن مبالغات الشاعر المداح في امثال هذا البيت :

وكل امريء يولي الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

والواقع انه لا يوجد في هذا كله شيء من الخطورة . ولا ندهش أقل من سماعنا في غالب الاحيان تكرر المطاعن البالغة الغرابة التي تقول ان المتنبي رضي بامتداح امراء ليسوا بعرب مثل كافور الاخشيدي أو عضد الدولة البويهي الفارسي. أليس هو القائل :

وانما الناس بالملوك وما
يفلح عرب ملوكهم عجم

ويرى شفيق جبري من الاصلح أن يحملنا على ملاحظة أن الامراء البويهيين كانوا مدفوعين بحميّة ميّالة للعرب حقيقة ، وفي الوقت نفسه كانوا من هواة الشعر العربي ، بل كانوا هم أنفسهم شعراء ، أو على أقل تقدير بعضهم . ونعتقد وجوب اضافة ان هذا اللوم يتوفر في عنصر جهل المنظور التأريخي . ففي القرن العاشر ، يجب حسبان حسابات التزامات الشاعر المداح المتكسب ، والمدلّل في أحضان الامراء والمضطر في الوقت نفسه للتكيف تجاه دسائس القصر .

الشعراء أحرار في أيامنا هذه بعواطفهم ومدائحهم . والتحمس لقناعاتهم القومية يلهمهم ما شاء دون مجابهة قسرية . وعلى جانب من الوفرة بحيث ان الابيات المماثلة لدى المتنبي تنتهي بالظهور بمظهر التحفظ والقلة في العدد ، اذا اقسناها بأشعار شعرائنا المعاصرين . ونلاحظ سموا جديدا لدى المتنبي حين تصدى لنظم أشعار المديح التي يختلف فيها عن سواه من شعراء التكسب . ففي عهد المتنبي كان الشعراء يعيشون في كنف ممدوحيهم الضيق مكرسين مدائحهم لهم . وحين يتغنون بالعنصر العربي كما يصنع المتنبي ، فان ذلك هو التعبير عن شعور لا يتسم بالارتزاق، شعور غاية في النزاهة، طالما ان العنصر العربي لم يستطع ، واحسرتاه ، أن يلعب دور المحسن ، اللهم الا بواسطة الامراء . ولهذا فان المتنبي تعلق مخلصا بشخص سيف الدولة حتى يوم حكم القدر عليه باستئناف حياة التشرد ، بعد ان فقد الحضوة لدى هذا العاهل . واتصور تصورا كافيا ان الوجدان المهني لشعراء القصر هؤلاء تقترب في اكثر من ملمح من وجدان محامينا المعاصرين الذين ليسوا اقل رفعة ضمير . فهم يعتبرون دورهم الاجتماعي على نفس قدم المساواة مع الخدمة العامة ، يرون أنفسهم ملزمين بصورة شريفة خدمة لقضية زبونهم بأن يبذلوا كل ما لديهم من حجج نافعة في الدفاع عن ذكراهم أمام الاحفاد . ويعتبرون جهودهم الانصاف نفسه. والمتنبي بالاضافة الى ذلك لم يتقبل الا القضايا التي يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر العربية . وقضية عضد الدولة كانت من جملة هذه القضايا على وجه التأكيد ، كما اجاد شفيق جبري كل الاجادة في تسليط الضوء عليها . ونحن نعلم انه ، رغم سخاء هذا الامير وحفاوته الكريمة بهذا الشاعر فان الشاعر لم يستطع قسر نفسه على العيش في شيراز في بلد فارسي . وان أسباب رحيله لم تعرف معرفة تبلغ درجة اليقين . ولكن الظاهر الأصدق يظل دائما الشعور بالحنين . هذا على الاقل ما تلوح به بعض اشاراته في الابيات التي دبجها في هذه الفترة والتي كانت أخريات أبيات حياته . ذلك لانه لدى العودة الطوعية من المنفى هلك مع ابنه في كمين لانه ابى أن يحيا بعيدا عن وطنه . وهكذا فان الانتقادات التي أثيرت غالبا بهذا الصدد تبدو محرومة من أساس صحيح. فالمتنبي يمثل في الحقيقة نموذجا (في عصر انتشرت فيه واتسعت أصداء المناهضات للعرب كالمناقشات الشعوبية) للحمية العنيدة المنافحة عن عنصره . وهو يمثل كذلك روح القومية العربية بقدر ما يتسع لها زمانه وحالته الشخصية .

* * *

ان أسلوبه لا يبرح نافعا كل النفع ، ربما حتى لشعراء ايامنا هذه ، وعلى كل حال لا مناص للمؤرخين من الاستفادة منه .

عرفت العصور المتقدمة المجادلات الشهيرة لانصار الشعوب المغلوبة على أمرها (الشعوبية) . كانت تدور بأكملها على الصعيد الثقافي وتتغذى من الموازنة بين مختلف مختلف الشعوب التراثية واسهاماتها المتعددة في الحضارة . والشعوب الخاضعة التي ترفد العرب ثقافيا تطالب بالمساواة، واحيانا باكثر من المساواة وذلك باسم الخدمات التي تقدمها للعلوم والفنون ، وباسم الفلسفة الاغريقية والطب الفارسي والفلك الهندي. ويجيبهم العرب بوضعهم في الميزان ثقافتهم الخاصة (الادب) ولغتهم وشعرهم ولا سيما الاسلام .

أما وجهة نظر المتنبي فهي الاعتزاز الصادق بالعروبة وذلك حين يبحث عن العروبة النقية فيجدها في عنصر الجنوب لدى اليماني الناجم هو منه :

علي أن كل كريم يمان

موقفه كذلك ينم عن أعتزازه بالعروبة عندما أكد تفوقها دون غموض أو ابهام وذلك لتبريرها . ان سمو عنصره هو السمو المطلق . ولم تعد مسألة حضارة ولا مسألة خدمات تؤدى للانسانية، وانما هي مسألة شرف وراثي ، وتربية عالية ، وكرم فطري ، وأخيرا براعة حربية . هذه المزايا هي مزايا قومية وليست مزايا أفراد . وان قيمتها عالية بصورة خاصة نظرا لكونها من مميزات العنصر العربي واليماني .

واخيرا فحكمه كذلك اعتزاز بالعروبة، فالعربي بعد أن دوّخ العالم أصبح عرضة للاذلال من الاعاجم:

بكل أرضٍ وطئتها أمم
ترعى بعبدٍ كأنها غنم

إنهم عبيد في الواقع ، أولئك الحكام المرتزقة من الفرس والترك والديلم ، المرتقون بين عشية وضحاها من القنانة الى الحكم . لقد وجدت الشعوبية في ذواتهم تحقيقا عجيبا لمطالبها ، ربما كان سيتنكرها المنظرون الاوائل لها . ذلك ان عصر المتنبي عصر حروب واضطهادات . والمزايا المعدودة اصبحت شيئا فشيئا مزايا الجندي . وأمل العرب فدا يقرره السلاح والتجمع القومي . وتعاسة الازمنة دعت الى انبثاق فجر يقظة هذه القومية وهذا تفسير التبدل في الاتجاه والاهتمامات . ولكن كلما زادت حدة التذكير بالامجاد العربية وقيم العرب ، زاد غالبا نسيان التحدث عن الاسلام . وعلى الاخص لم يعد العرب يحلمون باثبات تفوق العرب ولاسيما في تأسيسه على الامتياز الديني . وحتى في الحروب والغزوات كان الدفاع عن الاسلام يتنازل عن مكانه (بوصفه باعثا ادبيا) ليحتله تمجيد الانتصارات العربية . في احدى الجبهات العسكرية على حدود الامبراطورية ، ارتقى سيف الدولة درجة مرموقة في سلم المقاومة بمواجهة القسطنطينية ، فالروم يقومون بغارات يجعلونها تتخذ شكل حروب صليبية في نقشهم الصلبان على راياتهم وعلى أسلحتهم . ومع ذلك فان المتنبي لا يفكر الا بالاشادة بالانتصارات العربية ، ناسيا انها في الوقت نفسه انتصارات اسلامية .

نحن مدينون هنا أيضا لشفيق جبري بهذه الملاحظة : المتنبي ليس هو الشاعر الوحيد الذي ينظر الى الاشياء من زاوية العنصر هذه . ذلك ان عدة شذرات معاصرة يمكننا ان نشتشهد بها في هذا المجال . وان قيمة المتنبي لتظل في أنه عبّر عن هذا الشعور ، منذ مولد هذا الشعور ، وذلك بقوة خارقة وثبات فائق لا يملكها الأخرون . والشعراء هم اولئك الذين يحسنون أفضل ما يحسنون الاعراب عن الاماني الوطنية في فترة حرجة .

انها لفترة غريبة حقا ، ومتناقضة . فكلما مضى الوقت شعر العرب بأن سلطانهم القديم الدنيوي يبتعد ، في حين على العكس يشتد ساعد سلطانهم الروحي الذي لن يفت في عضده ، بعد ذلك بكثير نقل الخلافة السياسي فقط .

ومن جهة أخرى فان الاسلام يجتاز الازمة القرمطية ، التي يجب أن يخرج منها موسعا ، غنيا بالثروات المستقاة من كل ينابيع الاستلهام الديني والاشراقي ، الاكثر عالمية ، والاقل يعربية ولا شك. وتحدث حروب دينية جديدة ، وتنشأ فرق جديدة فتنتهي باعطائه هذا المظهر المبرقش الذي احتفظ به حتى يومنا هذا . وان رجة الحروب الصليبية لم توفق حتى الآن لتقوية هذا الجسم الهائل فتمنحه تماسكا قادرا على تحدي القرون . زمان المتنبي كان عهد اضطراب فياض بظهور ملل ونحل جديدة . وعلى ضوء هذه الوقائع ، فان ردّ الفعل القومي العربي (الذي كان المتنبي الشاهد عليه ، والناطق باسمه) يكتسي أهمية غريبة . فدون أن نجد فيه العنصر الخاص ، بل حتى المتحكم ، من هذه السبيكة المتشكلة .

ليس من المحظور أن نسميه المعدن المقاوم اكثر من سواه في تلك الفترة . ففي السلسلة التي ستطرقها القرون ستصاغ من شعر المتنبي الحلقة الصلدة التي ستؤمن استمرار الامبراطورية الاسلامية والشعب العربي .

* * *

لقد قلت ان هذا الموقف جسد المستقبل . وعلى هذه النقطة أود ان اشدّد ببعض الكلمات لاختم بحثي :

منذ اللحظة التي حاولنا فيها تحليل بعض الاتجاهات ، لم تعد مكانة العروبة تقريبا موضوع مناقشة. انها حقيقة تنحني أمامها الشعوب المغلوبة. وكنتيجة لهذا الواقع رأينا هذه الشعوب تختفي بصورة غير محسوسة . واستطاعت عملية العربنة أن تشق طريقها دون عقبات وذلك بواسطة اللغة والادب ، كذلك بواسطة انصهار الاعراق . ولهذا فاننا لا نكاد نجد في يومنا هذا على وجه الاقاليم (التي كانت في الماضي معمورة بالاقباط والنبط والسريان والنوبيين) الا عربا بين الاكثرية الساحقة من المسلمين . فالعنصر العربي تغلب دون

محاججات فلسفية ، وذلك بفضل منزلته . هكذا انطفأ النزاع الاولي الذي تولد من الفتح الاسلامي ، وهكذا تكونت الوحدة القوية لشعب ينتهي به المطاف الى الفوز بوعيه تحت انظارنا .

ولكن هذا التوحيد لم يكن ممكنا الا بعد ردّ الفعل القومي العربي كما نتبينه عبر شعر المتنبي وأشعار شعراء عصره . فالمعاصرون اذن سيتطيعون ان يحيّوا في شخص المتنبي احد الرواد .

التأريخ لا يعيد نفسه الا نادرا . ومع ذلك فأحيانا تتطلب اوضاع جديدة عودة اتجاهات قديمة وسط تنسيقات مختلفة . وان عصرنا لا يشبه عصر المتنبي الا قليلا . فالاسلام ، وهو بعيد كل البعد عن معاناة أزمة حب الانفصال ، يشعر شعورا حادا بوحدته العميقة . ففوق المنازعات الدينية يرفرف ميل للتضامن ، للوحدة دفاعا عن مصالح الاسلام العامة في العالم . ولكن بموازاة هذه القضية ، فان الشعوب التي يتألف منها الاسلام قد استيقظت على الشعور بفردياتها القومية المختلفة . ومن ضمن هذه الامم ، يحس الشعب العربي احساسا متزايدا على مدى الايام بوحدته الاساسية .

فاذا كان اعتزاز المتنبي بالعنصر العربي هو أصل تطور جديد ، فبمقدورنا ولا شك أن نمنحه قيمة أضافية أخرى . فالى جانب أهميته التاريخية من حيث انطلاقه ربما يحتفظ المتنبي كذلك بحالية قلت او كثرت . ولكن هذه مسألة تتعلق بمتمميه المعاصرين اليوم .

إن صوتا أفضل من صوتي الى ما لا نهاية ، ألا وهو صوت علامة خبير بالتاريخ الديني الاسلامي ، ذكرّنا هنا بالذات ، في برهنة ساطعة ، بنصيب شاعرنا في تخمير الافكار التي طبعت تلك الفترة الخلابة بطابعها . ومن المحتمل ان عبقرية عالمية على غرار عبقرية المتنبي ستوفق الى أن تقول من المتنبي ما لم يستطع أحد قوله حتى الان عن شخصيته الملغزة المعماة . ولن يعجب احد اذا ادعى بنصيبه في اغناء التراث المقدس للدين الاسلامي ، والاشادة بجوهرة ، وهي افتراضات بعيدة كل البعد عن قتلها بحثا وتمحيصا . وسأكون سعيدا ، اذا كنت قد توفقت ، في نطاق ضعف مجهوداتي ، بالاسهام في تقريب هذا الانسان الفريد الممتاز الى أنفسنا ، وذلك بالكشف عن دوره الحذر الفعال في تكوين ما يجب أن تكون عليه صيرورة الامة العربية .